المهول ﷺ

من نبأ من خذم المغول

بقلم

محمد بن عبد الله أحمد

(أبو الفضل القونوي)





مِنْ نبأِ مَنْ خدمَ المغولَ

بقلم

محمد بن عبد الله أحمد

(أبو الفضل القونوي)

الطبعة الأولي

١٤٣٢هـ / ٢٠١١م

مكتبة الرشد - ناشرون

المملكة العربية السعودية - الرياض

الإدارة : مركز البستان - طريق الملك فهد هاتف ٤٦٠٤٨١٨

ص . ب ١٧٥٢٢الرياض ١١٤٩٤ فاكس ٤٦٠٢٤٩٧

Email: info@rushd.com.sa

Website : www.rushd.com.sa

★ فروع المكتبة داخل المملكة:

الرياض :المركز الرئيسي:الدائري الغربي بين مخرجي ٢٧ و٢٨ هاتف ٤٣٢٩٣٣٢

الرياض : فرع طريق عثمان بن عفان هاتف ٢٠٥١٥٠٠

فرع مكة المكرمة : شارع الطائف هاتف ٥٥٨٥٤٠١ فاكس ٥٥٨٣٥٠٦

فرع المدينة المنورة : شارع أبي ذر الغفاري هاتف ٨٣٤٠٦٠٠ فاكس ٨٣٨٣٤٢٧

فرع جدة : مقابل ميدان الطائرة هاتف ٦٧٧٦٣٣١ فاكس ٦٧٧٦٣٥٤

فرع القصيم : بريده - طريق المدينة هاتف ٣٢٤٢٢١٤ فاكس ٣٢٤١٣٥٨

فرع أبها : شارع الملك فيصل هاتف ٢٣١٧٣٠٧ فاكس ٢٢٤٢٤٠٢

فرع الدمام : شارع الخزان هاتف ٨١٥٠٥٥٦ فاكس ٨٤١٨٤٧٣

فرع حائل : هاتف ٥٣٢٢٢٤٦ فاكس ٥٦٦٢٢٤٦

فرع الإحساء : هاتف ٥٨١٣٠٢٨ فاكس ٥٨١٣١١٥

فرع : تبوك هاتف ٤٢٤١٦٤٠ فاكس ٤٢٣٨٩٢٧

فرع القاهرة : شارع إبراهيم أبو النجا - مدينة نصر : هاتف ٢٢٧٢٨٩١١ - فاكس ٢٢٧١٢٦٢٥

★ مكاتبنا بالخارج:

القاهرة : مدينة نصر : هاتف ٢٧٤٤٦٠٥ موبايل ٠١١٦٢٨٦١٧٠

موبايل ٠١٠١٦٢٢٦٥٣ فاكس ٢٢٧١٣٦٢٥

بيروت : بئر حسن موبايل ٠٣٥٥٤٣٥٣ تلفاكس ٠٥٤٦٢٨٩٥

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تقديم

الحمد للَّه والصلاة والسلام على رسول اللَّه، وعلى آله وصحبه ومن ولاه.

وبعدُ:

فقد اطلعت على ما كتبه أخي الأديب المدقق محمد بن عبد اللَّه أحمد القونوي في كتابه (المهول من نبأ من خدم المغول)، فوجدته قد أجاد في جمع مادة الكتاب العلمية، وبيّن بصورة قاطعة خيانة من خدم المغول، من أصحاب الطرق الصوفية الضالة كالقلندرية، والرفاعية، واليونسية، وغيرهم، ممن عمل خفيرًا وجاسوسًا للمغول ضد المسلمين؛ وذلك عن عقيدة اعتقدوها فيمن تغلَّب على البلاد، على أن ذلك هو ما أراده اللَّه تعالى، فهُمْ - لفساد عقيدتهم - خلطوا الإرادة الكونية القدرية بالإرادة الشرعية؛ ففسدت نظرتهم إلى الأشياء، وقَبُح منهم القول والعمل. وقد أورد المؤلف كثيرًا من القصص التي تحكي كرامات مزعومة لهؤلاء الجواسيس لتسليك ضلالهم على العوام، وكان من أشهر من جمع هذه القصص وسماها منقولات هو ابن السراج العدو اللدود لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه اللَّه تعالى.

وقد استعان المؤلف بمصادر كثيرة لتوثيق الأخبار، وقد خرجت الأحاديث التي ذكرت في الكتاب، فاللَّه المسؤول أن يجزي المؤلف خيرًا على ذَبّه ونُصرته للتوحيد والعقيدة السلفية، وكشفه - في هذا الكتاب خاصة

وكتبه عامة- لكثير من انحرافات أعداء السنة والتوحيد عن الإسلام ؛ وجعل ما بَذَله من وقت وجهد في ميزان أعماله.

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾.

وكتب :

علي رضا بن عبد الله بن علي رضا

في ١٤/١/١٤٣٢هـ

في المدينة النبوية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمدُ للَّه ربِّ العالمين، حمدًا كثيرًا طيِّبًا مباركًا فيه، مِلْءَ السموات السَّبْع والأرَضِين، والصلاةُ والسلام على محمَّد، الرَّحمة المهداة للعرب والأعجمين، وعلى آله وأصحابه وأزواجه أجمعين، أما بعد:

فقد قرأتُ في كلام شيخ الإسلام ابن تيميَّة، رحمه اللَّه تعالى، كلمة «الخُفَراء»، و«خُفراء العَدُوِّ»، و«خفراء التَّتار»[1] وذلك في مَعْرض التحذير من انحرافاتٍ كُبرى لبعض الصوفية. وقرأت الكلمةَ نفْسَها في كلام ضِدِّه، القاضي، محمد بن السَّرَّاج الدمشقي[2]، الذي كاد يتميَّز غيظًا في ردوده عليه بعامَّة، وفيما تعْنِيه هذه الكلمة عند الصوفية بخاصَّة، فاستوقفني سبب تحذير الأول منهم، وحِرْص الأخير على تعظيم أمْرِهم، والذبِّ عنهم جَهْده. فأردتُ - في هذا الكتاب - أن أنقل من أخبار هؤلاء «الخفراء» ما يَبِينُ به صحَّة موقف المحذِّرِ منهم، وخطأ محسن الظنِّ فيهم، فضلًا عمَّن يُعَظِّمُهم، ويقتفي آثارهم.

كان شيخ الإسلام ابن تَيْمِيَّة - رحمه اللَّه تعالى - جريئًا في الحق، لا تأخذه في اللَّه - عزَّ وجلَّ- لومة لائم، وكان مع علمه بالدين، ومذاهب

---

(١) الفتاوى، لابن تيمية (٣٥١/٨، ٣٤٠/١٠، ٣٥١، ٥٩٩/١١، ٦٤٤).

(٢) محمد بن السَّرَّاج الدمشقي (ت٧٤٧هـ)، صوفي، وفقيه شافعي، معاصر لابن تيمية. انظر ترجمتي له في كتاب: (أضواء على الرسالة المنسوبة إلى الحافظ الذهبي: «النصيحة الذهبية لابن تَيْمِيَّة»، وتحقيق في صاحبها). دار المأمون للتراث - دمشق.

الناس الفكرية، سياسيًّا ناصحًا لولاة الأمر، يُدرِك أن اللَّه تعالى يَزَعُ بالسلطان ما لا يزع بالقرآن، وكان يتابع أخبار الأعداء حيث تنفع المسلمين هذه المتابعة، مشاركًا في جهاد أعداء الدين، فتكونت لديه فراسة سياسية، جعلته صائب الحَدْس في توقعاته، كتحديثه تلامذته بدخول جيش المغول دمشق سنة ٦٩٩هـ، وأن جيش المسلمين سَيُكْسَر، وأن دمشق لن يقع بها سَبْيٌ وقتل عامٌّ، كالذي حدث في بغداد وحلب، وغيرهما، قبل أن يَهمَّ المغول بالحركة(١)، فكأنه لَحَظَ - إذْ أسلم كثير من أمرائهم - أنهم سيغيِّرون من طريقة الاستئصال التي كانوا عليها، أو لأخبار بلَغَتْه ؛ فالرجل كان أمَّة وحده في ذلك العصر، تأتيه الاستفتاءات من نَواحي الأرض، أرض المسلمين، فلا بُدَّ أن أخبار عدوِّهم، من المغول وغيرهم، كانت تَصِلُه معها، فيَبْنِي عليها نتائجه السياسية أيضًا.

فنقرأ في رسالته إلى الملك الناصر (ت٧٤١هـ)، التي كتبها بعد وقعة الخزندار، التي فُلَّ فيها جيشُ الناصر، يخبره بأمورٍ بدا جَليًّا أنه أُوقِف عليها من قِبَل من سمَّاهم بالصادقين، ومن بعض محبِّيه من أمراء المماليك، أو مَنْ يُداخِلونهم، فيطَّلعون منهم على الأحوال السياسية، من أمثال: صارم الدين المنْبِجي (ت ٧٣٠هـ)، وكان لا يكاد ينقطع عن الشيخ يومًا واحدًا ؛ إما ليلًا أو نهارًا(٢)، فلعل بعض هؤلاء مَنْ أخبره أن في جيش المغْل، « مَنْ نَوى أن يخرج معهم إذا جمعوا، ثم إمَّا أن يقفز عنهم، وإما أن يوقِع بهم ». بل ونراه ينقل عن أميرة مغولية، كانت مأسورة في بيت سلطانهم (غازان) خبرَ الخلاف بين الأمير (خدابنده) (ت٧١٦هـ) وأمِّه، في شأن معاملة

---

(١) مدارج السالكين، لابن القيِّم (٣/٤٨٥).

(٢) تاريخ حوادث الزمان وأنبائه، لابن الجزري (٢/٤٠٦، ٤٠٧).

المسلمين[١]. وحين اقتضى الأمرُ أن يذهب إلى مخيَّم المغول، ذهب غير هيَّاب، وكلَّم ملكهم (غازان)، وقائدَيْه (قُطْلُوشاه) (ت٧٠٧هـ)، و(مولاي) (كان حيًّا سنة ٧٠٥هـ) في شأن المسلمين وأهل ذمَّتِهم[٢]، وكان حواره مع غازان حوارًا جريئًا تعجَّب له كل من حضر المجلس، وأولهم غازان[٣].

ولما سئل عن إسلام المغول، وادِّعائهم تحريم قتالهم، وأنهم لم يظلُّوا على الكفر الذي كانوا عليه أول الأمر، وعن حُكم مَن فَرَّ مِن المسلمين إليهم؛ من الأمراء وغيرهم سنة (٦٩٨هـ)[٤]، أوجب قتالهم وجوبًا شرعيًا صريحًا[٥].

عاش أبو العباس ابن تَيْمِيَّة جُلَّ حياته في دمشق، ومكَث في الاسكندرية والقاهرة زمنًا، حيث زوايا هذه الطرق الصوفية بأنواعها، فناظر ضُروب أهل الزَّيْغ فيها، حتَّى الإباحية[٦]، وكتب عن عوائدهم، وبدعهم الفكرية والعملية.

ويُعلم أن أكثر ما نُقل في المصادر من جهادٍ له مع زُمَر الانحراف، كان ما واجه به الرفاعية[٧] لكثرتهم وانضواء كثير من طرائق الغلو تحت مظَلَّتِها من جهة، ولانخداع بعض علماء دمشق بهم، من جهة ثانية، ولعلاقتهم المتميزة مع المغول من جهة أخرى، فإن أكثر من خدموهم كانوا رفاعية أو

---

(١) رسالة إلى الملك الناصر، لابن تَيْمِيَّة (ص ١٥، ١٦).

(٢) الرسالة القبرصية، لابن تَيْمِيَّة (ص ٢٦).

(٣) الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية، للبزار (٧٤٩هـ)، (ص٦٩-٧١).

(٤) نهاية الأرب، للنويري (٣٥٢/٣١)، وكنز الدرر، للداوداري (٣٧٣/٨).

(٥) الفتاوى، لابن تَيْمِيَّة (٥٠١/٢٨-٥٥٢).

(٦) مدارج السالكين، لابن القيم (٥٢٧/٢).

(٧) قد يُستحضَر في الذهن صورة رفاعية اليوم، وهذا خطأ، ذلك أن القدماء كانوا أشد غُلوًّا.

ممن ادَّعاها من أصناف القلندرية.

فأمَّا جهاده ضدَّ المغول فكان بشَحْذ الهِمَم لمباشرة قتالهم، وقد شارك في ذلك، وأمَّا جهاده ضدَّ خَدَمهم وخَفَرِهم من الرفاعية، فبمناظرتهم على رؤوس الأشهاد[١]، ليرسخ كشف عوارهم في الأذهان، وتتناقله الركبان، وقد كان، فأفتى وأجاب وكتب، وباشر نزع أطواق الحديد من أعناق بعضهم، والتي هي - في رأيي - أدلُّ على عبوديَّتهم للمغول منها على ما زعموه. ولقد كان أكثر ما ناله، بعد ذلك، من العَداء والأذى العظيم من جرَّاء ذلك. وقد تعَجَّب المؤرخُ والحافظ البرزالي (ت ٧٣٩هـ) - وهو من أصدقاء ابن تيمية - من شدة الزحام الذي وقع في جنازته، فقال: «هذا مع أن الرَّجل مات بالقلعة محبوسًا من جهة السلطان، وكثير من الفقهاء والفقراء يذكرون عنه للناس أشياء كثيرة، مما ينفر منها طِباع أهل الأديان، فضلًا عن أهل الإسلام!»[٢].

كانت مناظرته مع الرفاعية، في التاسع من جمادى الأولى، سنة ٧٠٥هـ، وكانت عَلنيَّة، ما سجَّل التاريخُ قَبْلُ لها شبيهًا، حضَرها جمهور كبير، على اختلاف توجهاتهم الفكرية، ويبدو للباحث جليًّا أن أحقاد زُمَر الصوفية قد تعاظمَتْ بعدها على ابن تَيْمِيَّة؛ لأنها انتهت بفضيحتهم وخِزيهم، ولا أدلَّ على ذلك، من الحوادث التي أعقبت ذلك في ترجمة ابن تيمية، من استدعائه إلى مصر، وإبقائه هناك سنين عِدَّة، وسِفارة خفيرالمغول الشيخ بَراق[٣] إلى المماليك، ويظهر انعكاس ذلك جليًّا على

---

(١) الفتاوى، لابن تَيْمِيَّة (٤٦٢/١١، ٤٦٧).

(٢) البداية والنهاية، لابن كثير (١٤٣/١٤).

(٣) براق بفتحة أوله وليس بضمها، وستأتي ترجمته.

مصنفات صديق ابن تيمية القديم، ثُمَّ شانئه بَعْدُ، أعني ابن السَّرَّاج الرفاعي - وأرجِّح حضوره يوم المناظرة -[١]، الذي لم تخمد أحقاد نفْسِه على أبي العباس بن تيمية، حتَّى بعد مرور قريب من عشر سنوات على المناظرة، فسطر في «تشويقه» بعض كلمات أبي العباس المعروفة لدينا في مصنفاته، ثم قال: «ونحن نقول، ونقسم باللَّه العظيم: إنا نعتقد أن هذا الكلام القبيح الشنيع، لا يليق بصغير مبتدئ بين يدي قائله، وإني واللَّه، واللَّه، واللَّه - ثلاثًا - الذي لا إله إلا هو، الرحمن الرحيم، لأحزنُ كل الحزن، وأتأسَّف كل الأسف، على مثل هذا الرجل الفاضل، من أجل صدور مثل هذه الأقوال عنه، مع علمه وفضيلته، كيف يرضى لنفْسِه أن يتكلم في مثل هذه الطائفة، التي شرَّفها اللَّه تعالى يقينًا، وأظهر لها آيات، وأقام على صِدْقِها بيِّنات، مع علمه بأن أحدًا لا يوافقه على مقالته، ولا يستحلُّ أن يُقْدِم على الحق، فيُقيم الباطل في قبالته. يا لها مِن حسرة على الفضلاء، الذين خسروا فضائلهم، ولم يأمن الحق وأهله غوائلهم!». ثمَّ جعل يمتدح طائفته بما لا تؤيده أحوالهم لا بحُكم شَرْعِيٍّ ميزانُه الشريعةُ والنُّهَى، ولا بحُكم حَصِيف من البشر يرجع إلى عقل صريح!![٢].

كانت كراهية هذا القاضي الرفاعي نتيجة قيام شيخ الإسلام بواجب النصيحة من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في دروسه ووعظه، وكتبه ورسائله إلى الآفاق، التي كان فيها مسلَّطًا - كما عبَّر الصفدي -[٣] على هؤلاء الرفاعية، واليونسية، والقلندرية، بخاصة، وغيرهم من المبتدعة

---

(١) سُقت شواهدي على ذلك في دراسة تصدر قريبًا - إن شاء اللَّه - عن ابن السَّرَّاج.
(٢) تشويق الأرواح، لابن السراج الدمشقي، مخطوطة المؤلف (الورقة ١٣٦، ١٣٧).
(٣) الوافي، للصفدي (١٨/٧).

بعامة. كانوا يرومون من ابن تيمية - رحمه اللَّه تعالى - أن يسكت عن الإنكار عليهم، ولا يعارضهم، وأن يُسَلِّم إليهم حالهم[١]، وهذا ما لم يفعله شيخُ الإسلام قطُّ.

وبعض « أنباء » مَنْ خدم المغول وخَفَرهم، في هذا الكتاب، تُنشر للمَرَّة الأُولى، لم أنقلها من مصدر عربي مطبوع، فهي بين أن تكون منقولة من مخطوطة، أو مترجمة من لسان الترك من مصادرها الفارسية.

هذا، وأسأل اللَّه أن ينفع بما كتبت، ويغفر لي ما أخطأت، وصلى اللَّه على محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد للَّه رب العالمين.

وكتب :

محمد بن عبد اللَّه أحمد

المدينة النبوية

١٤٣٢/١/١٥هـ

(١) المقتفي، للبرزالي، (٢٩٨/٣).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تمهيد

حَمَّل الصُّوفيةُ في مصنفاتهم كلمة: الخفير[١] معنىً زائدًا، اخترَعُوه في أخيِلَتِهِم، فزَعُموا أنَّ مِنْ أولياء اللَّه تعالى، أحياء وأمواتًا، مَنْ وُكِّلَ بحمايةِ مجموعاتٍ مِنَ البَشَر، من الأخطار، في بلدانهم، سواء أكانوا مسلِمين، أو مِنْ أتباع دياناتٍ أُخرى، مُنْطَلِقِين في زعمهم ذلك مِنْ انحرافاتٍ عَقَدية شنعاء، فمن ذلك ما أدخلوه في معنى كلمة: «وَليّ»، ومن ذلك أيضًا: فَهْمُهم الزائغُ لقضاءِ اللَّه تعالى وقَدَرِه. فأمَّا «الوَليُّ» فإنه - عندهم - مخلوقٌ، ولكن ليس كمخلوقٍ، وبَشَرِيٌّ، ولكن ليس كالبَشَر! هو إنسانٌ جُعلَت فيه صفات من صفات اللَّه تعالى، ومع هذا، فإنه ليس بإله! ويا اللهم غَفْرًا!

وأمَّا القضاء والقدر - عندهم- فإنَّ كلَّ ما قضاهُ اللَّه تعالى مِن خيرٍ وشَرٍّ، وكُفْرٍ وإيمانٍ، في الوجود، يجبُ أن يُحَبَّ! ويُعبِّر عن معتقَدهم هذا مقولةٌ اشتهرت في تركيا، لأحد غلاة صوفية الأناضول، الشاعر التُّركِي يونس أمْرَه (ت٧٢٠هـ)، وهي قوله: «أُحِبُّ المخلوقَ حُبًّا لخالِقِه!»[٢].

---

(١) جَمْعُ خَفِير، وخَفِيرُ القوم: مُجِيرُهم الذي هُمْ في ضَمانه ما داموا في بلاده. وَتَخَفَّرْتُ بفلان، إذا استجَرْتَ به، وسألتَهُ أن يكون لك خَفِيرًا، وأَخْفَرْتُ الرجُلَ إذا بَعثتَ معه خَفِيرًا، ويقال -أيضًا- (أَخْفَرْتُ) إذا نَقَضْتَ عهدَه وخِسْتَ به. والاسْمُ: الْخُفَارَةُ والْخَفَارَةُ - بضَمِّ الخاء وفتحها. ويقال: هذا خُفْرَتي - يَعْنِي الخَفِيرَ الذي يحميه ويمنعه. انظر: لسان العرب، لابن منظور (٤/٢٥٣-٢٥٤)، وغيره.

(٢) كثيرًا ما سمعت رئيس الوزراء التركي رجب طيب أردوغان، يوردها في خُطَبه في المحافل، وما أظنه عرف منطلقات قائلها الذَّميمة.

فهم يحبُّون المسلمين والكافرين، وما يصْدُر عنهما من قبيح وحَسَن، إذْ هو بقضاء خالقهما، ولا يُفرِّقُون بين قضاءٍ كَوْنيٍّ، قضاهُ ربُّ العِزَّةِ - سبحانه - ليس بالضرورة أن يكون جميع أفراده محبوبين له، وقضاءٍ شرْعيٍّ له - تبارك وتعالى - تدْخُل فيه الأحكام الفقهية الخمسة، فلذلك سواءٌ - عندهم- قولُه: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، وقوله عز وجل: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤] فكِلا القضاءَيْن يَعْنِيان - بزعمهم- أنَّ اللَّه - عزَّ وجلَّ- أحبَّ فسادَ بني إسرائيل كما أحبَّ توحيدَهُ، وعلى هذا فقد خَلطوا الحابل بالنابل، والصالح بالطالح، فاللَّه تعالى - في مفهومهم- يُحِبُّ مَنْ قضى عليه أن يَبرَّ والديه، حُبَّهُ مَنْ قضى عليه بكبيرِ الذَّنْبِ، من عكس ذلك، فالبارُّ المحسِن لوالديه - عندهم - هوَ كمن قال ويقول لهما: ﴿أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأحقاف: ١٧]، تعالى اللَّه عن قولهم هذا عُلوًّا كبيرًا.

ويَلْحَظُ الدارسُ لمصادر التاريخ الإسلامي أنَّ أكثر مَن كانت له « ارتباطات » و« علاقات » بغُزاة الأوطان، وكان مستحِقًّا بذلك لوَصْفِ « الخيانة الوطنية » - بتعبير الناس اليوم - كان ممن أُدرِجَ اسمُه في سِجلِّ أولياء الصوفية (طبقات الصوفية)، ولن يَخفى على ذي عَينَيْن، مِنْ أولئك الدارسين، الوِئامُ الذي كان بين تلك الشخصيات، وبين قادة أعْتى قوَّة غاصبةٍ مَرَّتْ على بلاد المسلمين، أعني دولة المغول، حتَّى لَيَسُوغُ لك- تَهكُّمًا - تسميةُ ذلك العصر: « عصر الأولياء العملاء »، لِتَوافُرهم فيه !

وغيرُ بعيدٍ أن يكون في عَديدِ هؤلاء « الأولياء العملاء »، مَنْ هو زنديقٌ

في قَرارةِ نَفْسِه، لا يَدِين بدِين - فضلًا عن الإسلام- وإنما تَستَّر به، ليأْمَن سيفَ الشريعة، وإنْ كان يَغلب على الظنِّ أنَّ أكثرهم كانوا مسلمين اشتدَّ جهلُهم بالإسلام الذي بُعث به خاتمُ الرسل محمد ﷺ. وكيف لا ؟ وهل في الاحتمالات ثالثٌ لِوَصْفِ أُناسٍ إنْ دَهَم العدوُّ أرضهم، وقام الأسوياءُ للدفاع عن الدين والعِرض، وقيل لأحدهم: حيَّ على الجهاد، و« أُمِرَ بقتالِ العَدوِّ يقول: أُقاتلُ اللَّهَ ؟ ! ما أقدِر أنْ أقاتل اللَّه ! »[1].

نَعَمْ، لقد بدَّلَ هذا الصِّنف من « العملاءِ » ثوابتَ عقلية وعَقَديَّة، وحرَّفوا كثيرًا من مدلولات نُصوصِ كلام اللَّه تعالى، وكلامِ رسوله ﷺ، وقالوا لأناس دَهْرِهم، بلسان الحال، بل والقال أيضًا: خُذُوا هذه المعاني لهذه الآيات والأحاديثِ، فإنَّها سِرُّها وباطنُ معناها !! ولم يكْتَفوا بذلك، بل وَضَعوا القصص الباطلة، وافتروا مِن ضُروب المحال والباطل، أكاذيبَ كانت آذانُ وعقولُ كثيرٍ ممن يستمع إليها منهم، لا تَنْبُو عنها، ولا تنكِرها، فمِنْ ذلك أنَّ أهلَ الصُّفَّةِ، مِنْ فقراء الصحابةِ، رضوان اللَّه عليهم، كانوا إذا التقَى جيشُ المسلمينَ معَ جيشِ كفَّار قريشٍ، انحازَ أهلُ الصفَّة إلى المشركين، وقاتلوا معهم النبيَّ وصحْبَه، مُدَّعِين في ذلك أنهم مع اللَّه في تلك المعركة !

وشارَكَ في الترويجِ لأمثالِ هذه الخرافات والأكاذيبِ، ممن كتب وصَنَّف، صاحبُ كتابٍ: تذكرة الشعراء (شعراء الفارسية)، المعروف بـ (دَوْلَتْشَاه)، (ت ٨٩٦هـ)، حين قال: « ذَكَر أصحابُ الكَشْف أنه - ﷺ- كان، والخضر عليه السلام، قد حَضَرا جيشَ جنكيز خان، وأنهما كانا

---

(١) ما بين علامة التنصيص من كلامهم الذي سمعه منهم شيخ الإسلام أبو العباس بنُ تَيْمِيَّة. انظر: (مجموع الفتاوى ١/٣٣٣).

يَدُلَّانِه على الطريق، ويُعِينَانِه ! »[١].

وفي المصادر رواياتٌ يُصرِّح فيها « صاحبُ الكَشْف » من الصوفية بتعظيم (جنكيز خان)، المعظَّم أصلًا عند المغول، فإنهم حين تعارفوا، وأدخلوا بعض أمراء المغول في « الإسلام »، اتجَّهَتْ قرائحُ « أصحابِ الكشف » هؤلاء إلى « تصنيع » أكاذيبَ عن جنكيزخان، تُفْرِحُ المغولَ وتُرْضِيهم، وما أظُنُّ أنَّ ما نَطَق به أحدُ كبارِ أمراء المغول المسمَّى: قُطْلُوشاه - وهو من أحفاد جنكيز - حين قَدِمَ الشَّام سنة ٦٩٩هـ، وسمعه منه بعض علماء دمشق، من قوله في سياق تقرُّبه إليهم بأنَّهم مسلمون: « هذان آيتان عظيمتان جاءا من عند اللَّه: محمدٌ، وجنكزخان ! »[٢]، وأنَّ مَن خرج عن طاعة جدِّه جنكيزخان أوطاعة ذرِّيته فهو خارجي ![٣] إلا مِنْ بعض نماذج تلك الأكاذيب التي صنعها وزخرفها ذوو « الكشوف » من الصوفية ! وقد يعجب من لا يعرف هذه الحقيقة إذا قرأ في مصدر تاريخي أن أميرًا مملوكيًا اسمه (بَيْبُغا) المظفَّري (ت ٨٣٣هـ) كفَّر مملوكيًا آخر، بل وأراد قتله ؛ والسبب: استخفافه بجنكيزخان[٤].

فإذا عرفتَ هذا الأنموذج، مما كانوا يَتكَذَّبُونه، وَضَحَتْ عندك بعض أسباب الصورة المزْرِيَة، التي ذَكرها ابنُ الأثير (ت٦٣٠هـ) في تاريخه، لأُناسِ دَهْره، الذين كانوا يُساقون إلى الذَّبح، غير مُكبَّلِين، خِرافًا

---

(١) تذكرة دولتشاه، الترجمة التركية، طبعة وزارة المعارف التركية. أنقرة ١٩٦٣.

(٢) سَمِع ذلك أبو العباس بن تيمية من بعض أمراء المغول.
انظر: مجموع الفتاوى (٢٨/٥٢٠، ٥٢١).

(٣) ذيل مرآة الزمان، لليونيني (١/٢٩٢)، طبعة إمارة أبو ظبي.

(٤) النجوم الزاهرة، لابن تغري بردي (١٤/٣٢٠).

مُستخذِيةً، اكتفى المغولُ لضرْبِ أعناقهم بمغوليٍّ واحد![1] وأن امرأة مغولية واحدة دخلت دارًا وفيها مئة رجل، فقتلت خمسين، وأسرَت خمسين، وهم يظنون أنها رجل، فلمَّا وضعت السلاح رآها بعضهم امرأةً، فقتلها بعضُ أسراها.[2]

وكان مِن فعال هذا الصنف من العملاء، مع نَقْلِهم الأخبار للمغول، نَشْرُ دعاياتٍ تُفيدِهم، وبثُّ عقائد شركية كاللجوء في الأزمات إلى غير اللَّه تعالى، ثم الاستخذاء التام للقوة المغتصِبة، حتى أفسدوا ما في الناس من حَمِيَّة فِطرية، من الدفاع عن المال والنَّفْس والعِرض، فأخربوا دنيا الناس وآخرتهم معًا. وهذا البيت من نتاج ذلك الانتكاس:

يا خائفِينَ مِنَ التَّتَرْ لُوذُوا بِقَبْرِ أبي عُمَرْ[3]

ولا يعني هذا أن جميع شيوخ الصوفية كانوا عملاء وخدمًا لـ (هولاكو)، وآل بيته، ودولته، فهذا يحيى الصَّرْصَري، وعلي بن سليمان الخبَّاز، صوفيان كانا في بغداد يوم نكبتها سنة ٦٥٦هـ، وكانا من ضحايا مجزرة المُغْل فيها[4]، دُعِيَا إلى الاحتماء بدارٍ من الدُّور المحمِيَّة، التي أعطى المغولُ أصحابها، قبل الهجوم عليها صكوك الحماية (الفَرَمانات)، وكانت تُرفع على أبوابها ودُروبها رايةٌ سوداء من رايات (هولاكو)، ليميزها عسكرُ

---

(١) انظر: الكامل في التاريخ، لابن الأثير (١٠/٤٩٤).

(٢) روضة الأعيان في أخبار أعيان مشاهير الزمان، لمحمد بن أبي بكر بن دكين، (الورقة ١٨١-١٨٢).

(٣) كتاب الاستغاثة، لابن تيمية (ص ٣٧٨). ولم أقف على قائل البيت، وأما أبو عمر، فهو الشيخ الزاهد الإمام محمد بن أحمد بن قدامة المقدسي، أخو الشيخ الموفَّق، المتوفَّى سنة ٦٠٧هـ. انظر: تاريخ الإسلام، للذهبي (١٣/١٧٢-١٨٢).

(٤) تاريخ الإسلام، للذهبي (١٤/٨٣٣).

المُغْل عن غيرها، ممن لا (فَرمان) عندهم[١]، فأبى الصرصريُّ الاحتماء بها، وأعدَّ في دارِهِ حجارةً للقائهم[٢]، فلما دخلوا عليه قاتلهم بها، فهَشَّمَ منهم جماعةً، نحو اثني عشر مغوليًا، فلما خلصوا إليه قتلَ واحدًا منهم بعُكَّازه[٣]، ثم قُتل رحمه اللَّه تعالى[٤].

وأما علي الخبَّاز، فقُتل وألقيت جثته أمام زاويته، فبقيت ثلاثة أيام، حتى أكل الكلابُ من لحمه، ثم دُفن.[٥]

وكان مما قاله الإمام ابن شيخ الحزَّامِين (ت٧١١هـ) عند كلامه على بدَع الرفاعية الذين تربَّى - هو- بينهم، في العراق، إذْ كان والدُه أحد شيوخهم: «... ولا يُنكِرُ ذلك أحدٌ عليهم، لا من فقهائنا ولا من صُلَحائنا، بل صارت هذه البِدَعُ عندنا سُنَّة معروفة، وشعارًا ظاهرًا، فيحِقُّ لذلك تَملُّكُ **التتر** بلادهم واستيلاؤهم عليهم، بل هم طيِّبون في دولتهم، لأنهم معتقدون فيهم، معظِّمون لهم، فهل تقوم الطريقة العمياء إلا في الدولة السوداء؟ كما لا تقوم الطريقة المنوَّرة إلا في الدولة البيضاء، دولة أهل الإسلام؟ وربَّما لم ينقطع أثر الخلفاء في بغداد إلا لكونهم لم ينكروا مثل هذه الأشياء، و[لمَّا]

---

(١) انظر: بعض أخبار هذه (الفَرَمانات) في تاريخ الإسلام، للذهبي (٦٦٨/١٤) وثمرات الأوراق (ص٤٦١-٤٦٦)، والحوادث الجامعة والتجارب النافعة، المنسوب لابن الفوطي (ص ٣٥٩)، وقد جمعتُ لهذا الأمر نصوصًا تاريخية من مصادر معاصرة لحكم (الإلخانيين) في الأناضول في كتابي: أخبار جلال الدين الرومي (ص ٧٢-٨٨) وكتابي: الصوفية القَلَنْدَرِية (ص ١٤٩)، وانظر أسماء بعض أصحاب تلك الدُّور في: عقد الجمان (في حوادث سنة ٦٥٨هـ)، عند ذكر استباحة المُغْل حلب.

(٢) تاريخ ابن كثير (٣٧٧/١٧).

(٣) شذرات الذهب، لابن العماد (٢٨٦/٥).

(٤) ذيل طبقات الحنابلة، لابن رجب (٢٦٢/٢) ذيل مرآة الزمان (٢٥٧/١).

(٥) تاريخ ابن كثير (٣٨٢/١٧).

لم يُغيِّروها وسَلَّموها لهم، قطَعَهم اللَّه تعالى لذلك».[١]

كلام ابن تيميَّة على «الخُفَراء»:

قال شيخ الإسلام ابن تَيْمِيَّة، رحمه اللَّه تعالى: «... ومِن هذا الجنسِ حالُ خفراء الكافرين والمبتدعين والظالمين، فإنهم قد يكونُ لهم زهدٌ وعبادةٌ وهِمَّة، كما يكون للمشركين وأهل الكتاب، وكما كان للخوارج المارقين، الذين قال فيهم النبيُّ ﷺ: «يحقِرُ أَحَدُكُم صلاتَهُ مع صَلاتِهم وصيامَه مع صيامِهم، وقراءتهُ معَ قرَاءَتهم، يَقْرؤُونَ القرآنَ لا يُجاوِزُ حناجِرَهُم، يَمْرُقُونَ مِنَ الإسلامِ كما يمرقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّة، أينما لَقِيتموهُم فاقتلُوهُم، فَإنَّ في قَتْلهم أَجْرًا عند اللَّه لِمَنْ قتلَهُمْ يوم القيامة»[٢]، وقد يكون لهم مع ذلك أحوالٌ باطنةٌ، كما يكون لهم مَلَكَةٌ ظاهرةٌ، فإنَّ سلطانَ الباطنِ معناهُ السلطانُ الظاهر، ولا يكون مِن أولياء اللَّه إلا مَنْ كان مِن ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٣]. وما فعلوه مِنَ الإعانة على الظلم، فهُم يستحقُّون العقاب عليه بقَدْر الذَّنْب.

وباب القدرة والتمكُّن باطنًا وظاهرًا ليس مستلزِمًا لولاية اللَّه تعالى، بل قد يكون وليُّ اللَّه مُتَمَكِّنًا، ذا سلطانٍ، وقد يكون مستضعفًا، إلى أن ينصره اللَّه، وقد يكون عدوُّ اللَّه مستضعفًا، وقد يكون سلطانًا، إلى أن يَنتقم اللَّه منه، **فخفراءُ التتارِ، في الباطن، من جنسِ التَّتار، في الظاهر، هؤلاء في العُبَّاد، بمنزلة هؤلاء في الأجناد.** وأمَّا الغَلَبة، فإنَّ اللَّه قد يُدِيلُ الكافرين على المؤمنين - تارةً- كما يُديل المؤمنين على الكافرين، كما كان يكون لأصحاب النبيِّ، ﷺ، مع عدُوِّهم، لكن العاقبة للمتقين. فإن اللَّه يقول:

---

(١) العماديات، مجموع فيه رسائل للعماد الواسطي، (ص٣٢).

(٢) رواه البخاري، (برقم ٦٥٣١).

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١] »[١].

وقال: « ... حتَّى آلَ الأمرُ بكثيرٍ من هؤلاء إلى أن جَعَلُوا أولياء اللَّه المتقين يُقاتلون أنبياءه، ويعاونون أعداءه، وأنهم مأمورون بذلك، وهو أمرٌ شيطانيٌّ قَدَري، ولهذا يقول من يقول منهم: إن الكفارَ لهم خفراء من أولياء اللَّه، كما للمسلمين خفراء من أولياء اللَّه، ويَظُنّ كثير منهم أن أهل الصُّفَّة قاتلوا النبيَّ ﷺ في بعض المغازي، فقال [النَّبيُّ]: يا أصحابي، تخلُّوني وتذهبون عنِّي؟ فقالوا: نحن مع اللَّه، مَن كان مع اللَّه كنَّا معه ...» !![٢]

وقال: « وهؤلاء يقول بعض مشايخهم: أنا كافرٌ بِرَبٍّ يُعْصَى، ويقول: لو قتلتُ سبعين نبيًّا لم أكن مخطئًا !![٣]، ويقول بعض شعرائهم:

أصبحتُ مُنْفَعِلًا لما يَختاره مِنِّي، فَفِعْلي كلُّه طاعاتُ ! »[٤].

وقال: « ... ويُجوِّزُون قتالَ الأنبياء، وقتْلَهم - كما قال شيخٌ مشهورٌ منهم - كان بالشام[٥] « لو قتلتُ سبعين نبيًّا ما كنتُ مخطئًا ! »، فإنه ليس في مَشْهَدِهم للَّه محبوبٌ مرضيٌّ إلا ما وَقَعَ، فما وَقَعَ فاللَّهُ يحبُّه ويَرْضَاه، وما لم يَقَعْ فاللَّه لا يحبُّه ولا يرضاه، والواقعُ هو تَبَعُ القَدَرِ لمشيئةِ اللَّه وقدرته، فما شاءَ كان وما لم يَشَأْ لم يكن، فَهُمْ: مَنْ غَلَبَ كانوا معه، لأن مَنْ غَلَب كان القَدَرُ معه، والمقدورُ عندهم هو محبوبُ الحقِّ، فإذا غَلَبَ الكفارُ كانوا

---

(١) رسائل ومسائل شيخ الإسلام ابن تَيْمِيَّة، (١/٦٧).

(٢) الفتاوى، لابن تيمية (٨/٣٤٩).

(٣) نقله الذهبي في تاريخ الإسلام في ترجمة علي الحريري (١٤/٥٢٣).

(٤) منهاج السنة النبوية، لابن تيمية (٣/٢٥).

(٥) يعني: عليًّا الحريريَّ، شيخ الحريرية، مات سنة ٦٤٥هـ.

معهم، وإذا غَلَبَ المسلمون كانوا معهم، وإذا كان الرسولُ منصورًا، كانوا معه، وإذا غُلِبَ أصحابه، كانوا مع الكفار الذين غلبوهم ! ».

وقال أيضًا: « ... وعامَّة مَن معهم - مِن الخُفراء - هُمْ مِن هذا الضَّرْب، فإنَّ لهم حُظوظًا ينالونها باستيلائهم[1]، لا تحصل لهم باستيلاء المؤمنين. وشياطينُهم تحبُّ تلك الحظوظَ المذمومة، وتُغْرِيهم بطلبهم، وتخاطبهم الشياطين بأمْرٍ، ونَهْيٍ، وكَشْفٍ، يظنُّونه مِن جهة اللَّه، وأنَّ اللَّهَ هو أمَرَهم ونهاهم، وأنه حَصَلَ لهم مِن المكاشفة ما حصل لأولياء اللَّه المتقين، ويكون ذلك مِن الشيطان، وهم لا يُفرِّقون بين الأحوال الرحمانية والشيطانية، لأن الفَرْقَ مَبْنيٌّ على شهود الفَرْق من جهة الرَّبِّ - تعالى - وعندهم لا فرق بين الأمور الحادثة، كلُّها من جهة اللَّه - تعالى - إنما هو مشيئةٌ مَحْضَةٌ، تناولتِ الأشياءَ تناوُلًا واحدًا، فلا يُحِبُّ شيئًا، ولا يُبغِض شيئًا ! ».

و نقَل- رحمه اللَّه تعالى - خَبر انسياقِ شيخٍ من الزُّهَّاد وراء هذا الاعتقاد الباطل للقَدَر، عند هذا الصنف من الصوفية، حتَّى بعد رؤيتهم ما يزلزل الجبال، فذكر قصة الشيخ محمد بن سَكْران (ت٦٦٧هـ)، عندما رأى يوم نكبة بغداد رجلًا بهيئة شيوخ الصوفية، محلوق الرأس[2] آخذًا بلجام فرَس ملِك المشركين هولاكو يقوده عند دخوله بغداد، فاستعظَم ذلك في نفْسِه، أن يكون شيخٌ صوفيٌّ، يقودُ فرس هذا الملك المشرك السَّفَّاح، فسأله: هل فعلتَ ذلك بأمر؟ فقال: نَعَمْ، بأمر !

وأورد - رحمةُ اللَّه عليه - خبرًا عن صوفي يقال له: عثمان بن محمد بن

(١) يعني: باستيلاء الكفار والمنافقين، وكان المغول منهم.
(٢) هذه صفة القَلَنْدَرية.

عبد الحميد العَدَوي البعلبكي (ت٦٥١هـ)[(١)]، لعله لا يَقِلُّ غفلة عن ابن سكران، قال: «... وكان - أيضًا - بالشام بعض أكابر الشيوخ ببعلبك - الشيخُ عثمان، شيخُ دَيْرِ ناعِس - يأتيه خَفِير الفرنج النصارى، راكبًا أسدًا[(٢)] ويَخْلُو به، ويُناجيه، ويقول: يا شيخ عثمان، وُكِّلْتُ بحفظ خنازيرهم! فيعذره عثمان، وأتباعه من الصوفية في ذلك، ويَرَوْن أن اللّه أمَرَه بهذا كما أُمِر الخَضِرَ أن يفعل ما فعل، كما عَذَرَ ابنُ السكران، وأمثالُه خفراءَ المشركين التتار.

والجواب لهذا كالجواب لذلك، يقال له: وَكَّلَكَ اللّهُ تعالى بهذا؟ الذي أَنْزَل على لسان نَبِيِّه الدِّين، أَمَرَ أن يُوالَى المسلمون، وألا يُتَّخَذ اليهودُ والنصارى أولياء، بل أمركَ أن تبغضهم وتجاهدهم بما استطعتَ- هوَ أمرَكَ أنْ تتوكلَ بحفظ خنازيرهم؟! فإن قال هذا، ظهر كذبُه، وإن قال: بل هو أَمْرٌ أُلقِيَ في قلبي. لم يكذبْ! وقيل له: فهذا مِنْ أمْرِ الشيطان، لا مِنْ أمْرِ الرحمن، الذي أنزَل به كتبه، وأرسل به رسله، ولكنه مِنَ الأمر الذي كوَّنَه وقَدَّرَه، كشِرْكِ المشركين الذين قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨]»[(٣)].

---

(١) ترجم له الذهبي - رحمه اللّه تعالى- في التاريخ وغيره، وأثنى عليه، ونقل قصصًا عنه لا أدري كيف سكت عن التعليق على تزيُّد المريدين فيها؟! انظر: تاريخ الإسلام (١٤/ ٧١١-٧١٢).

(٢) في الاحتمال أن يكون الشيخ المذكور راكب الأسد وخفير النصارى هو: صاري صَالْتُوق. وسيأتي الكلام عليه في ترجمته.

(٣) مجموع الفتاوى، لابن تيمية (١٣/ ٢٢١).

الخَفِيرُ في اعتقاد الصوفية :

قال محمد بن السَّرَّاج الدمشقي الرفاعي: « فإن قيل: نرى كثيرًا من الناس يقولون: مِنَ الرجالِ خفراءٌ، فللمسلمين خفراءٌ، وللفرنج خفراءٌ، وللكُرْج خفراءٌ، وللأرمن خفراءٌ، وللتتار خفراءٌ، إلى غير ذلك - والخفراءُ هُم الذين يَتَوَلَّون أمْرَ مَنْ يَخْفِرُونه - ونجد قومًا آخرين يمنعونه، ويُنْكِرونه!

قلنا: الخِفارةُ حَقٌّ على اعتقادِ أهلِ المعرفةِ والإحاطة بالأصول، وسنذكر شيئًا منها، في فَنِّ المنقولات[١] يُوضِّحُ مُشْكِلَها، إن شاء اللَّه تعالى »[٢].

خفراء المسلمين :

يُلحظ أن المماليك لم يختلفوا كثيرًا عن المغول في الإفادة من زمر الصوفية بعد وُقُوفهم على « الخدمات » التي قدَّموها للمغول، وكان السلطان (بَيْبَرس) من دهاتهم في ذلك، تتبعًا للأخبار بواسطتهم[٣]، وغير بعيد أن يكون قد نُقِلت إليه - أيضًا - سيرة الخليفة العباسي الناصر لدين اللَّه (ت ٦٢٢هـ)، وما كان يأتيه من أخبار الأرجاء بواسطة رجال الفُتُوَّة، تلك الحركة الصوفية، التي جعل نفسَه زعيمها المقدَّس، في بغداد، وجهَّز منها مشايخ من الصوفية سفراء له إلى ملوك الأطراف، « وبقي الناصرُ يلبس سراويل الفُتُوَّة لسلاطين البلاد!! »[٤]، فكانت مجموعاته الصوفية هذه،

---

(١) يعني بالمنقولات حكايات الصوفية عن أوليائهم، وقد أفردها بتأليف سمَّاه: تفاح الأرواح ومفتاح الأرباح. وهو من جملة أجزاء كتابه: تشويق الأرواح والقلوب إلى ذكر علَّام الغيوب.

(٢) تشويق الأرواح والقلوب، لابن السَّرَّاج (الورقة ٢٠٥).

(٣) نهاية الأرب، للنويري (٣١/٩٠، ٣٠/٢٦٠).

(٤) سير أعلام النبلاء، للذهبي (٢٢/ ٢٠٤).

بمنزلة « الاستخبارات » اليوم، يمدونه بالأخبار، حتَّى بلغ من تمَكُّنِه في ذلك أن ظنُّوا أنه مخدوم من الجن ![١].

وقد وَضُحَت خدماتهم، بعد سنوات (بيبرس) الحاسمة، ففي عهد سلطان المغول أحمد بن هولاكو، كثرت وقائع اكتشاف أفراد كانوا يقومون بالتجسُّس، متنكِّرين في زِيِّ القلندرية، فكان أن أرسل أحمد بن هولاكو إلى السلطان قلاوون - رحمه اللَّه نعالى - يتشكَّى من أن الدولة المصرية جعلت تبثُّ الجواسيس في لبوس القلندرية، وما جَرَّه ذلك من قتل المذنب وغير المذنب منهم، حتَّى شُكَّ في أمر الفقراء (الصوفية) كلهم، فكان جواب قلاوون أن البدء بهذا الأمر كان من جهة المغول، فهم الذين فتحوا هذا الباب، وسَيَّروهم جماعات كثيرة إليهم، في مصر والشام لهذا الغرض[٢].

وكان ابن قِلِيج الرفاعي (كان حيًّا سنة ٦٩٩هـ)، ممن أُتُّهِمَ عند (بايدو بن هولاكو) بأنه جاسوس للمماليك، فعُذِّب، ثُمَّ إنه أراهم ما يُتْقِنُه الرِّفاعِيَّة المنحرفة، مِن فنونهم السِّحريَّة والشيطانية - أو الخِداعية- مِن دخول النار دون تأثُّر، فلما أحْكَم إضلالهم وخديعتهم، عظَّموه وأعطوه مرسومًا مضمونه أنه يُكرَم أينما حَلَّ، وإنْ مات في مكان، فسيُقتل أهلُ ذاك المكان، فكان هَمُّ الناس إكرامه، ثمَّ سؤاله الرحيل عنهم ![٣]

وذكر ابن السَّرَّاج بعض خفراء المسلمين، وَعَدَّ منهم مبارك الهندي (ت٦٨٩هـ)، قال عنه إنه من خفراء السلطان قلاوون (ت٦٨٩هـ)، وآخَر كان

---

(١) تاريخ الإسلام، للذهبي (٦٨٨/١٣).

(٢) كنز الدرر، للداواداري (٢٥٢/٨، ٢٥٣، ٢٥٨)، وانظر: تاريخ مختصر الدول، لابن العبري (ص ٢٥٣، ٢٥٤)، وصبح الأعشى (٢٥٨/٧-٢٦٤).

(٣) تشويق الأرواح، لابن السراج (الورقة ١٣٠).

خَفِير ابنه السلطان خليل (ت٦٩٣هـ)، اسمه: محمد بن أبي بكر العَرَوْدَك، أورد بعض خوارقه، فمنها ما خلاصته: أنه قَتل بعمودِ خيمةٍ، وهو في مكانه، خَفِيرَ المُغْل، وذلك بحركات قتالية (بهلوانية) جاء بها في الهواء! ولكن أما كان ينبغي أن يُسأل هذا العَرَوْدك: كيف تَقتل خفيرَ المُغْل، وهو خفيرٌ مثلك، وإنما خَفَر للمغول بأمرٍ إلهي - بزعمهم- ؟!

ويزداد عَجَبك من بقيَّة الخبر، فإنه زُعِم فيه أنه بَعْد قريب من عشرين سنة، من ذلك، أيامَ مَقْدَم غازان، سنة ٧٠٠هـ، قال هذا العرَوْدك نفسُه لمريديه: «أنا قتلت خَفِير التتار سنةَ حمص، وغدًا يأتي خَفِيرُهم يقتلني بسببه!»، وأنه وصَفَه بوَصْفِه، فكان كل ذلك، وقُتل بسَهْمٍ غَرْبٍ، لكنه عند ابن السَّرَّاج سهمٌ خارق للعادة، كراماتيٌّ مُوَجَّه، يبحث عن هدفه، هذا مفهوم كلامه!

ثم قال كلامًا بيِّن الدلالة على رسوخ ما يعتقده هؤلاء الخفراء في المُغْل، وفي جيوشهم، من الاعتقاد الإبليسي للقدَر، الذي خدَموا به الغُزاة المدمِّرين، بما لم يخدمهم بمِثْله حلفائهم مِن الأرمن والكرج، والفرنج، واليهود، ومَن شئت ممن ليسوا من أهل القِبلة، قال: «... فهل يَبْقى في ذلك شكٌّ، أوْ في أمر الخفراء توقُّف أو رَيْب، إلا عند مَن طمَس اللَّهُ على قلبه، وأعمى بصيرته؟! وكم لذلك مِن مثل رأيناه وسمعناه في أيامنا، من جُندٍ من أصحاب الأمراء أو غيرهم، ممن لا يُظن به أنه من أهل ذلك، وقد أخبرونا بصورة الوقائع قبل وقوعها، ثم لم يختلِف الحالُ فيما أخبرونا به، ولكن لا نذكر ذلك كله، لعِلْمِنا بتَطَرُّق الجهَلَة، وإيذاء الفَجَرَة، عافانا اللَّه تعالى، مِن أمراضهم، وكَفَانا مِثْلَ أغراضهم، ولا حشرَنا في زُمَرِهم، ولا

ابتلانا بكسوف شمسهم، ولا بخسوف قمَرِهم، آمين ! »[١].

وقال ابن السَّرَّاج - أيضًا - مخبرًا عن نفسه: « ... وأمَّا اطِّلاعُنا على أحوالِ الخفراء، فأكثر من أن يُحَصَّل ! »[٢]، وذلك لأنه سَكَن بعد خروجه من دمشق، أرضًا هي بالوصف الجغرافي اليوم من جنوب الأناضول، وكانت يومئذ « مستعمَرة » تتْبَع المغول، فلا جَرَم أنه كان، في الفَيْنة بعد الفينة، يَمُرُّ به، وهو على قضاء (بَهَسْنِي) وأمثالها من الحصون المملوكية في أطراف بلادهم، الخفيرُ الصوفيُّ بعد الآخَر، فعَنْ مشاهدةٍ بعض ما وَصَفَ وحَكى.

و مما أوْرَد في ذلك « كرامة » لشيخه الحيدري، محمد المرستاني، ويُفهَم مما حكاه منها أنه كان من خفراء المسلمين، أوْ هكذا أحبَّ أن يُعرف، وقد يكون الحق غير ما أظْهَر، لأننا نعلم أنه كان صديقًا للشيخ بَراق، السفير الصوفي « كبير الشأن » في دولة المُغْل، والمعظَّم عند خدابنده، وقُطْلُوشاه- وسأحكي لك أمره بَعْدُ- فلم يُرِد ابنُ السَّرَّاج أن يُظَن بالمرستاني أنه خَفِير لهم أيضًا، فيطلبه المماليك، وإن كان قد بَيَّنَ أن خفراء المُغْل لا تثريب عليهم في عمالتهم، ولسانُ حاله يومئ إلى قوله تعالى ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِيۚ﴾ [الكهف: ٨٢]، وخلاصة قصة هذه « الكرامة » أن المرستاني قصد موضعًا قُرب قلعة (بَهَسْنِي) يُسمَّى (عين البقر)، وبات فيه ثلاث عشرة ليلة، فكان أن سأله الناس: لم بِتَّ كلَّ هذه المدَّةِ خارج (بَهَسْنِي) ؟

فقال: « كان قد جاء من التتار ثمانية آلاف فارس إلى (دارَنْدَه) - ثغرٌ

---

(١) تفاح الأرواح، لابن السراج، (المنقول ٢٧٥ و٢٧٦).

(٢) تفاح الأرواح، (المنقول ٢٧٩).

بأيدي الأرْمَن الملاعين على مسيرة يومَيْن من (بَهَسْنِي)[(١)] - وكان غرضهم الإغارة على الشام، على حين غفلة، فلذلك بِتُّ هنا، والبارحة مَرَّ خَفِيرُهم على هذا الجِسر - وهو قريبٌ من (عين البقر) - وهو رجلٌ أسْوَد على فَرَس أبيض، فضَرَبْتُ فرسَه في جبهته، فسقط، فماتا، فرجع التتار خائفين مسرعين بصوت ربَّاني ! »، وذَكر أنه جاءهم مِن (دارنده) مَن أخبَر بصِدْقِه بعد أيام، وعَلَّق ابنُ السَّرَّاج - هُنا - بقوله: « ولو دَخَلُوا الشامَ لَعَظُم فسادُهم »[(٢)].

وكانت للمُغْلِ مناوشاتٌ عسكرية مع المماليك، في شمال سوريَّة وشرقها، في شهر رمضان سنة ٧١٢هـ، لعل هذا الخَفِير (المزْدَوج) رَكَّبَ عليها كرامَتَه تلك ! والحال في ذلك كما قاله عن هلال الحوراني، قال ابن السَّراج: « كان بدمشق- حرَسها اللَّه تعالى- شخص يُدعى هلال الموَلَّه الحوراني، وكان خفيرًا عظيمًا للإسلام، فلم يتمكن التتار من دخول دمشق سنة تسع وتسعين وستمئة [...] حتى قتلته الخفراء ! وكان بدمشق مقيمًا عدَّة سنين، وكان ظاهره فاحشًا جدًّا بحيث مَن رآه استَزْراه ...»، ثم حكى « كرامة » له مع الإمام عبد اللَّه بن مروان الفارقي (ت٧٠٣هـ)، رحمه اللَّه تعالى.[(٣)]

خفير عسكر المغول :

هذه حكاية « وَليٍّ » عَمِيلٍ للمغول ! ذكرها ابن السَّرَّاج، أراك ستقضي منها العَجَب، قال: « روينا عن الشيخ حَيْدَر البغدادي، قال: قال الشمسُ

---

(١) ما بين معترضتين من كلام ابن السراج.

(٢) تشويق الأرواح، لابن السراج، (الورقة ١٨٢).

(٣) تشويق الأرواح، (الورقة ٢٠٦).

ابنُ الصَّفِيِّ الجَزَرِيُّ: سألتُ الشيخَ عبدَالعزيزِ، غلامَ الشيخِ سُويد التَّلْعفَري - رضي اللَّه عنه- عن الشيخ عَمْرٍو الكاري، فقال: امْضِ إلى (الكار)[1]، فستَرَى رجلًا في المقبرة، فاسأله عن قبرِه يُرْشِدْكَ.

فمضيتُ فوجدتُ رجلًا يَغْزِل صوفًا، فقال لي ابتداءً: تُريدُ قبرَ عمرٍو الكاري؟ فقلتُ: نَعَمْ، فقال: هنا، ثُمَّ قال: دفنوه هنا، فلما انصرفوا اصطَدَمَ عليه ثَوْران فَدَرَسَ!

فلما رجعتُ حكيتُ لعبد العزيز، فقال: هوَ ذاكَ عمرٌو بنَفْسِه! فتردَّدتُ إلى (الكار)، وأنا أسأل اللَّه أن يُرِيَني إيَّاه، فرأيته مرَّةً، فسألتُه الدعاءَ، ففعلَ، وسألتُه أن يُرِيَني خَفِيرَ المغول - يعني: المُغْل-[2] فقال: اقصد (الأوْرْدُو)[3]، فانظُرْ بين المخيم، فإنك ترى خيمةً سوداء، بأطنابٍ سُودٍ، على عمود أسود، وتحتها رَجُل على بساطٍ أسود، وعليه مسحٌ أسود، مخل من العين اليسرى، فاعلم أنه خَفِيرُ المغول.

فلما وصلتُ رأيت جميع ما ذُكر، فقال لي الرجلُ ابتداءً: تعالَ، وأوْمَأ بيدِه إليَّ، ثم قال: أخبِرْني عن الشيخ عمرٍو الكاريِّ، فقلت له: إنه يُقرئك السلام، فقال: علينا سلامُه! ذاكَ رجُلٌ حَصَل له الخلود في الدارَيْن! ثُمَّ قال: تريد أن ترى ما نحن فيه؟

قلت: نَعَمْ! فَرَفَس العَمودَ برِجْلِه، فسقطتِ الخيمةُ، فرأيتُ جميع الخيم قد صاروا على ظَهر، وهَمُّوا بالرَّحيل، فقال: رأيتَ؟ فقلت: نعم. ثم أعاد العمود، فنَصَبوا الجميع لوَقْتِه، فسألتُه الدعاء وانصرفتُ. فلما رجع

---

(١) الكار: قرية عند الموصل بالعراق.

(٢) مابين معترضتين من كلام ابن السراج، وهو مفيد في إيضاح اللفظ الأقرب للنطق الصحيح بكلمة (مغول) كما هي.

أعاد ذلك كله، ثُمَّ لم يتكلَّمْ، إلى أن توفي بعد عشرين سنة. وكان يقرأ القرآن الكريم بالرِّوايات السَّبْع متقنًا، وكان مقامُه عند حمَّام الصليب، تغمَّده اللَّه برحمته ورضوانه!

فإن قيل: كيفَ يصحُّ ذلك؟ وقد قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤]، قلنا: نقول أولًا، قال: ﴿مِّن قَبْلِكَ﴾ وقد يُعطِي بعضَ أمَّتِه الخُلْدَ إكرامًا له، ويعطي له بنفْسه، لأن الرفيق الأعلى الذي سأل هو أولى به، وبكمال مَنْصِبه، وإن قلنا بعمومه، قلنا: المراد لا يموت. والخواصُّ يُعطَوْن حياةً أخرى خاصة، بعد الموت، لمن شاء اللَّه تعالى، وقد ثبت ذلك عندنا وتحقَّق، ولا يَشُك فيه إلا مَن جَهِلَه يقينًا، ولو شرَعْنا في ذِكْرِ ما صَحَّ عندنا منه لَطالَ الشرحُ!»[١]

وانظر إليه كيفَ يجيب على سؤال يَرِدُ عليهم في هذه المسألة حين قال: «فإن قيل: إذا كان كذلك، فلمَّا كان النبي ﷺ موجودًا، مَنْ كان خَفِير قومِه؟ أكان هو أو غيره؟ ومن كان خَفِير أعدائه؟ إنْ كان نبيًّا مثلَه، فكيفَ كان يكون قبالته؟! والنبيُّ ﷺ لا يُعادِله أحدٌ في زمانه، ولا غيره، وكيفَ كان يؤثِّر فيه، أو في قومه مع وجوده؟ قلنا: الظاهرُ أنه كان خَفِيرَ قومه، كما قالوا - رضي اللَّه عنهم -: ما احمَرَّتِ الحربُ إلا اتَّقَيْنا برسول اللَّه ﷺ[٢]. ولو كان غيره، وهو إله بين يديه تعظيمًا له لما امتنع ذلك! وكيفَ يمتنع؟ وهو مِن اللَّه، والمؤمنون منه، وفي أصحابه مثل عمر - رضي اللَّه عنه - الذي يقول: يا ساريةُ الجبلَ الجبلَ. وعُمَر بالمدينة , وساريةُ في

(١) الأوردو، كلمة مغولية تركية تعني معسكر جيوشهم.

(٢) تفاح الأرواح، لابن السراج، (المنقول ٢٧٩).

(٣) مسند أحمد بن حنبل (١/١٢٦، حديث رقم ١٠٤٢).

(نهاوَنْد)؟ ومثل عليٍّ - كرم اللَّه وجهه- وهو يقول: ما قلعتُ باب خيبر بقوة جسدية، ولكن بقوة إلهيَّة.[١] وسَلُوني عن طُرُق السماء، فإني أخْبَرُ بها مِن طُرق الأرض[٢].

وقولهم: وإن لم يكن نبيًّا مثله، فكيفَ كان تكون قبالته إلى آخره؟ فنقولُ: لم نلتزم أن كل خَفِيرٍ يكون قبالته مَن يُعادله، بل قد يكون غير معادل، بل قد يكون كافرًا ظاهرًا وباطنًا! وله دعاءٌ وعَمَلُ قَلْبٍ بحَسَبِه، وكيفَ لا يكون ذلك؟ واللَّه تعالى يقول: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٢٦]، فقد قرَّر أن يعطيهم النصر من عنده، والنبيُّ ﷺ يقول: «إنهم يُنصرون كما تنصرون»[٣]، و«إن الكافر ليَطْعم بحسناته في الدنيا»[٤]. وقد يكون من جملة طعامه النَّصر بدعائه، وتأثير أفعاله، وإن كان في الحديث: «إن دعاءهم فيكم لا يستجاب»، وبالعكس.

فنقولُ: ليس ذلك عامًّا، وقد كان في هذا الزَّمْن القريب بدمشق -

---

(١) خبر موضوع. لا أصل له؛ وهو من وضع الرافضة.

(٢) لم أقف على مصدر ذكر هذه المقولة بإسناد، ولو صحَّت عنه- رضي اللَّه عنه - لكان المخاطبون بها هم شيعته في الكوفة، الذين أتعبه جهلُهم، وليسوا الصحابة رضي اللَّه عنهم.

(٣) جزء من حديث رواه الطبراني في مسند الشاميين (١١٥/٤). برقم (٢٨٧٢) من قول عوف ابن مالك - رضي اللَّه عنه- في القوم الذين يستحلُّون الخمر والحر والمعازف، وأنهم ينصرون كما تنصرون، حتى يوشك قائلهم أن يقول: فعل اللَّه بأوَّلنا كذا وكذا، لو كان حرامًا ما نصرنا ولا رزقنا، حتى إذا خرج الدجال لحقوا به، لا يتمالكون عنه، يخرجهم إليه أعمالهم. لكن سنده منقطع.

(٤) حديث صحيح، رواه مسلم برقم (٢٨٠٨) بلفظ: «إن اللَّه لا يظلم مؤمناً حسنةً، يعطى بها في الدنيا، ويجزى بها في الآخرة، وأمَّا الكافر، فيطعم بحسنات ما عمل بها للَّه في الدنيا، حتى إذا أفْضَى إلى الآخرة لم يكن له حسنة يُجزى بها».

حرسَها اللّه تعالى - يهوديٌّ يُؤذيهِ قَصَّابٌ، فشكاه إلى كبيرٍ منهم (من اليهود) مرارًا، فلما زاد قال له: أرِنيه، فلما رآه هَمْهَم بشَفَتَيْه يسيرًا، فوضع القصَّابُ سكِّينَه في صَدْرِ نَفْسِه، فخرجتْ مِنْ ظهره، فقال كبيرُه: أطابَ قلبُك؟ قال: نَعَمْ.

ولذلك أمثال كثيرة يطول شرحها، لا يقال: قال اللّه تعالى: ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ [الرعد: ١٤] لأنَّا نقول: المراد بذلك عبادتهم الأصنام، كذلك قال ابن عباس رضي اللّه عنهما، وقولهم: وكيفَ يؤثِّر فيه إلى آخِره؟ قلنا: أينَ يُتاهُ بكم؟ أليس قد سَحَرَه لبيدُ بن الأعصمِ، كما قدمنا شرحه في كتابنا هذا؟! ».

ثم قال: « ... فإن قيل: قد ذكرتَ لنا من أحوال الفقراء أنواعًا، وعظَّمْتَ مَن تَطْرَحُه غالب الفقهاء، كالشيخ يونس[1]، وأنكرتَ على مَن ينكِر عليهم أحوالهم، ومَن يجعلها من تَنَزُّلات الشياطين، وذكرتَ الخفراء، وأنَّ منهم من يَقِفُ مع المشيئة، ومنهم من يقف مع المشيئة والشريعة.

وذكرتَ من يَتعانى أمورًا ربما أنكر الشرعُ بعضها، أو لم يأمرْ به، وكل ذلك أمور مشتبهة محتملة محيرة، يُخشى منها التورُّطُ في الجهالات، والوقوع في مهاوي الضلالات، فكيفَ الخلاص من حبائلها؟ وعرفان أواخرها من أوائلها؟ »[2]، فقال كلامًا طويلًا دخل فيه في مسألة الأصلح واللطف، في سَرْدٍ كلاميٍّ حادَ فيه عن جوابِ ما أوْرَدَهُ.

و مِنْ أمانةِ العِلم القولُ: إنَّ لابن السَّرَّاج كلامًا خلطَ فيه الحق بالباطل،

---

(١) يعني شيخ اليونسية من الصوفية، يونس بن يوسف بن مساعد الشيباني القُنَيِّيّ، وهو قلندري المشرب. توفي سنة ٦١٧هـ.

(٢) تشويق الأرواح، لابن السراج (الورقة ٢٠٩ - ٢١٣).

فتناقضَ تناقضًا ظاهرًا في مسألة القدر، مثل قوله: «وقد يطَّلع بعض الرجال على سرّ القدَر، ويعلم مواقعه التي تخفى على كثير من الخواص، فضلًا عن غيرهم، ويكفي في ذلك قصة موسى والخضر»، مع أنه قال: «... قلنا: الرِّضا بالقضاء، لا المقْضِي، فنكرهه، ونُنكِره، ونأمر بضِدِّه ...»، وقال: «... وقد يغْلِب على بعضهم المبالغةُ في رؤية الفاعل المختار وحده، وأنه ليس ثَمَّ غير صنعتِه، وآثار صنعته، فلم يَبْقَ يُنكر شيئًا البَتَّة، حياء من الفاعل المحرِّك للكُلِّ!».[١]

خفير المغول الشيخ معتوق:

قال: «... فيما روينا أن الشيخ معتوق الباعشقي - رحمه اللّه - من متأخري أصحاب الشيخ يونس (الشيباني) إدراكًا، وإنما سَلكه صاحبه الشيخ عمرٌو الدُوْغاني - وفي رواية غيره - أقام ببغداد زمانًا، وبها توفي - في أيامنا - وجرَت له أحوال عظيمة منها ما سنذكره: وهو أنَّ صاحب الدِّيوان[٢] أشار على (أباقا) بن هولاكو بإرسال أخيه (منكودَمِر) بالجيش التتاري نيابة عنه، إلى بلاد الشام سنة ثمانين وستمئة للّهجرة، فلما انكسر (منكودمر) بجَحْفَلِه بأرض حمص في رجب منها، قال (أباقا) لصاحب الديوان: أنت أخَّرْتَني مكيدةً منك. وأراد قتله، وقَتْلَ أهل بغداد، وأوْقَعَ به النكال ابتداء.

فاستغاث بالشيخ معتوق، وتوسَّل به إلى اللّه تعالى - كما هو معلومٌ عند المحققين! - فقال الشيخ معتوق: وعِزَّةِ المعبود لا أدعُ أحدًا منهم يَصِلُ

---

(١) تشويق الأرواح، (الورقة ٧٥، ٧٦).

(٢) المراد من صاحب الديوان هنا: علاء الدين، عطا مَلِك الجويني، عامل المغول على العراق، مات سنة ٦٨١هـ.

إليكم بما تكرهون ! فخَلصوا من الدَّرْكِ، ورَدَّه اللَّه إلى رُتْبَتِه مكرَّمًا ! ».

قلت: ما أشبه هذا بالكذب، وغير بعيد - كما ذكرتُ معناه سابقًا - أنْ يستغل هؤلاء الحادثة التاريخية، فيُضِيفوا إليها تعليلات وأسبابًا من نسج خيالهم الماكر، لِيُوائموا في اتِّساق بين الحادثة وبين ما تَكَذَّبوه لـ « كَوالِيسها »، فيظنها المُريدُ السامعُ والقارئ حقيقةَ الأمر فيها، ولم أرَ لقوله: إنَّ (أباقا) أراد قتل البغادِدَة مصدرًا يَعْضُده.

ثم قال: « .. فيما روينا عن شخص من أصحابنا الصلحاء - ولم يكن بدمشق مُفْتٍ من المالكية سواه - يقال له الشيخ شمس الدين محمد بن أحمد بن شبل المالكي الجَزَري البغدادي[1]، قال لنا: توَجَّهْنا إلى زيارة الشيخ معتوق - وكلاهما ببغداد - مع فقيهين آخرين، وقالوا في طريقهم: كيفَ يأكل الشيخُ معتوقٌ مالَ صاحبِ الديوان، مع ما هو معلومٌ فيه من الشُّبهة والحرام؟! فلما وصلوا قال: يا أولادي، تقولون عني كذا وكذا، وأعاد الجميع، ثم قال: مالي حيلة ! واللَّه لو أطعموني خَراج قحبةٍ لأكَلْتُه ! فاستَحْيَوا مِن هَيْبَته، واعتذروا إليه كثيرًا ! ».

ثم علَّق ابنُ السَّرَّاج بهذه الكلمات التي أدَع للقارئ وَصْفَها وصاحبَها، قال: « ونقول: هذه الوقائع لا ينازع فيها إلا جاهل، فإنها إنْ لم تثْبُت ظاهرًا قد تكون وقعت باطنًا لا محالة ! وإذا خَفِيَت بالنسبة إلى بعض الناس لا عجب، وكذا غير ذلك من أحوال الرجال، فاعلم ذلك، وافهمه ! ».

قلت: من نَعماء اللَّه تعالى، التي يجب أن يُحمد - عَزَّ وجَلَّ - عليها لأمثال هذه السطور من ابن السراج، وأشباهه، فقد أوقف المسلمين على ما

---

(١) ولد سنة ٦٤٧هـ، وأسره المغول صغيرًا، نشأ في بغداد، ثم ارتحل إلى دمشق، توفي سنة ٧١٣هـ.

فَضَحَ به سُبُلَ الزُّيوف من الصوفية، وهي اعترافات جاءت مِن ذات أنفسِهم.

قال ابن السَّرَّاج: « وأما الشيخ عمرو الدُّوْغاني الذي ذكرنا أنه تمَّمَ تربية الشيخ معتوق، فإنه صحب الشيخ يونس[1] مدة، وجرَت له معه أحوال، وتمكن حتَّى كاد ينفرد، إلى أن رأى ما ردَّه، ورجع إلى خدمته خاضعًا.

ولهذا - عمرو الدوغاني - أحوالٌ وأخبار لا نرى ذكرها لقصور الأفهام عنها جملة كافية! فكيفَ يقال: إن هذا الشيخ يونس، الذي هذا حاله، وحال تلامذته ليس بشيء، أو ضعيف، أو زنديق؟ حاشا للَّه تعالى. تنبيه: دُوغان، بِدالٍ مهملة، وواوٍ، وغَينٍ معجمة وألِفٍ، ونون، قريةٌ بالقُرْب من ماردِين ».[2]

الشيخ تاج الدين الرفاعي[3]:

قال ابن السَّرَّاج: « فيما روينا أن هولاكو - ملكَ التتار المسبوكة لإهلاك المتعرضين من الكفار في حال كُفرهم المشهور، وتجبُّرهم وعُتوِّهم، وأكْلِهم ما دَبَّ ودَرَج، والميتة، حتَّى إن المرأة إذا وَلدتْ بِكرها شَوَته وأكلته، هي وأبوه، يقينًا، إلى غير ذلك من الفنون، واشتمالهم على أصناف الأديان والمذاهب، كاليهودية والنصرانية، والمجوسية، وعبادة الشمس، والقمر، والأصنام، وغير ذلك، وتخريبهم البلاد، وإظهارهم الفساد الذي لا يوصف ولا يُحكى - رَسَم مرَّةً، لدخول النصارى عليه بأسبابٍ[4]، بتخريب المساجد والمدارس، وإبطال الأذان، وجميع شعائر الإسلام، وقَتْلِ العلماء والفقراء، وغير ذلك، فاجتمَعَ قريبٌ من خمس مئة عالمٍ إلى

(١) يعني الشيباني الذي مرَّ ذِكره.

(٢) تفاح الأرواح، لابن السراج (المنقول ١٩٠، ١٩١).

(٣) واسمه أحمد بن شمس الدين، مات سنة ٧٠٤هـ.

(٤) أي: أمَر بذلك لتقريبه النصارى وتأثيرهم عليه.

سيدنا شمس الدين المستعجِل[١]، رضي اللَّه عنه، واستغاثوا مما عاينوا من إحاطة البلاء بالمسلمين، وسألوه النظر في حال الإسلام، فقالوا: يا مولانا ! ما هو وَقْت القال، أدْرِكنا يا صاحب الحال !

فأرسل معهم سيدي تاجَ الدين- ولدَه- وأوصاه بما يعتمِد عليه، رضي اللَّه عنهما، فتجهَّزَ معهم، وصُحْبَتُه جَمْعٌ عظيمٌ مِنَ المولَّهين - الذين قد جعَلهم بعضُ علماء زماننا الشياطين، قاتله اللَّه تعالى - فلما وَصَلوا أثَّرَ حالُهم في (هولاكو) تأثيرًا عظيمًا، إلى أن أرْجَفُوه، فقال لسيدي تاج الدين - وهو شابٌّ إذْ ذاك -: ما تَرْسُم ؟ فقال: أنت قد انفعلْتَ لهؤلاء النصارى، وهم ضالُّون بَطَّالون، وأنت لا تعرف العِلم، وإلا كان ظَهَر لهؤلاء العلماء بسؤالك الحق، ولكن بيننا وبينهم أن يُعمَل لنا نارٌ مشترَكةٌ مِنَ المعادن، تَلِيق بمُلْكِك وعظَمَتك، وندخلها نحن وهؤلاء، فمَن كان محقًّا سَلِمَ، ومَن كان مُبْطِلًا هلَك. فقال: سمعًا وطاعة !

ثُمَّ أمَر الجيش، فحَفَروا حفيرةً عظيمة، ثُمَّ ملؤوها أحطابًا، وحديدًا، ونحاسًا، ورصاصًا، وغير ذلك، مما اقترحه البخشيَّة - وهم السَّحَرة -[٢]، ثم قال: أُنفخوا، إلى أن صارت نارًا مانعة لا تُقابَل من مسيرة ساعة، ثم أحدق الجيش بالعلماء والفقراء والنصارى، ثم صار سيدي تاج الدين يتقدَّم عنهم خطوات، ثم يصلي ركعتين، ثم يشير إليهم: تعالَوْا. فيُمْكنهم المسير إلى حيث صلَّى، ثم يتقدم خطوات، ثم يصلِّي ركعتين، ثُمَّ يُشير إليهم:

---

(١) هذا والد تاج الدين المذكور.

(٢) البخشية: هم كهنة البوذيين من المغول، واحدهم (بخشي)، وكان يُنظر إليهم أنهم وحدهم من يستطيع إبطال تأثير السحر ودفع ضرره. انظر: (المغول في التاريخ ص ٣٥٤). وقد قرأها د. حمزة عباس: (النَّخْشَبِيَّة) ونسبهم إلى مدينة (نخشب) !! انظر حاشية (رقم: ٢) من تحقيقه كتاب اليونيني (ذيل مرآة الزمان ٢/١٠٩١).

تعالوا، فيمكنهم المسير إلى حيث صلَّى، إلى أن أوقفهم على شفير الحفيرة، ثم إنه بكى، وبكوا الفقراء بكاءً عظيمًا.

ثم أشار بيده الكريمة إلى الفقراء: أنِ انْزِلُوا، فنزلوا فيها، وكل شخص في يده قسِّيسٌ أو راهب أو ساحر، وغاصُوا فيها، وخرجوا من الناحية الأخرى سالمين، وفي يَدِ كلِّ فقير بعض النصراني الذي أمسكه، إمَّا يده، وإما رأسه، وباقِيهِ قد ذاب، أو قطعة من الحديد والنحاس، فبعضها جامدة وبعضها يسيل، فيتَلَقَّى سَيَلانها بوجهه وعينيه وفمه، وسائر جسده، إلى أن بقي مِنَ النصارى خَلْقٌ يسير، فاستجاروا بالملك، واشتروا أنفسهم بأموال عظيمة، فبُهِتَ الملك وسائر رجال دولته، وخضعوا للفقراء، وذَلُّوا، وذهبتْ عقولهم، لما عاينوا من هذه المعجزة العظيمة النبوية المحمدية، إذْ كرامةُ كل ولي معجزةٌ لنبيِّه يقينًا.

ثم أنعَموا عليهم إنعامًا عظيمًا، وجهَّزوهم في العِزِّ والجاه والقَبول، وحَلَّ بالنصارى النَّكال الأعظم، وبَرَزتِ المراسيمُ بإبطال ما تقدم، وبالكرامة والاحترام للعلماء والفقراء، والمعابد الإسلامية، وتحَقَّق المِلِكُ تمكين الإسلام ودوام برهانهم.(١)

وروينا من طريق آخر: أنه أرسَل مع ولده أخاه أبا بكر، وأنه تقدَّمَ إلى النار، ووضع مئزره عليها فخَفَّف وَهَجَها، وأنه شرب السّمَّ القاطعَ بعد عَجْز النصارى والبخشية عنه، وأنه عَرِقَ، فتفَتَّتَ مِئْزَرُه من ملاقاة السُّمِّ - ردًّا

---

(١) يحسُن بالقارئ أن يقرأ جواب شيخ الإسلام ابن تيمية على مسألة دخولهم النار، وذلك بالرجوع إلى ما كتبه عن المناظرة - وكان بطَلها- مع الرفاعية، وكان مما قاله - سقى اللَّه قبرًا ضمَّ أعظُمه - في ختامها: «أنا كافرٌ بكم، وبأحوالكم، فكيدوني جميعًا ثُمَّ لا تنظرون !».

انظر: الفتاوى، لابن تيمية (١١/٤٤٥-٤٧٥).

على المتعرِّضين بالباطل، القائلين: «إن الشيطان يَتَلَقَّى السمَّ، فلا يَدَعْهُ يدخل فَمَ الشارب»، اعتداء على اللَّه ورسوله وأوليائه! إذْ يُريد أن يُبطِل كلَّ صالح يُنقَل عن المسلمين، ويدَّعي أنه صالحهم، وناصحهم، وعاملهم، وعالمهم، قاتله اللَّه تعالى!

ويحتمل صحَّة الروايتين، وأنه ظهر لقوم حال، ولقوم حال آخر، والجميع عظيم، والوقت مدهش، وكم لذلك مِنْ مثل، والكلُّ صحيحٌ في بابه - وجاء سيدي تاج الدين، رضي اللَّه عنه، من جهةٍ، وسيدي أبو بكر من جهة، وشرب أبو بكر السُّمَّ، ولم يعلم به البعض، ولا قادح في ذلك عند العلماء.

وبالجملة كان ذلك أعظم الدواهي على أعداء اللَّه تعالى، ومُعاينتهم الأمور القاتلة، وخاصة بما فعله سيدي تاج الدين، وسيدي أبو بكر مِن تفضُّلهم إلى النار بالتدريج، لِيُعلَم أنها في حُكمِهم- بإذن اللَّه تعالى- الذي وَهَب لهم أكرَمَ الفضائل، ومَنَّ عليهم بأعظم النوائل، حتَّى شادُوا الدِّين في هذه الأعصار، وأزالوا عن المؤمنين شدائد الإحصار، وأحْيَوا سُنَّة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بكراماتهم ...»[1].

توضيح من ابن تيمية:

قال رحمه اللَّه تعالى: «وأمَّا من لم يكن مقرًّا بالأنبياء، فهذا لا يَعرف الوليَّ من غيره؛ إذِ الوليُّ لا يكون وليًّا إلا إذا آمَن بالرُّسل. لكن قد تدُل الخوارقُ على أن هؤلاء على الحقِّ، دون هؤلاء، لكونهم من أتباع الأنبياء، كما قد يتنازع المسلمون والكفار في الدِّين، فيؤيِّد اللَّهُ المؤمنين بخوارق

---

(١) تفاح الأرواح، لابن السراج، (المنقول ٣٤٥).

تدُل على صحَّة دينهم، كما صارت النار على أبي مسْلِم[١] بردًا وسلامًا، وكما شرب خالدٌ السُّم، وأمثال ذلك، فهذه الخوارقُ هي من جنس آيات الأنبياء، وقد يجتمع كفارٌ، ومسلمون، ومبتدعة، وفجار، فيؤيَّد هؤلاء بخوارق تُعِينُهم عليها الجنُّ والشياطين، ولكن جِنَّهم وشياطينهم أقرب إلى الإسلام، فيترجَّحُون بها على أولئك الكفار عند مَن لا يعرف النُّبُوات، كما يجري لكثير من المبتدعة والفجَّار، مع الكفار، مثل ما يجري للأحمدية[٢]، وغيرهم، مع عُبَّاد المشركين البخشية، قُدَّام التتار، كانت خوارق هؤلاء أقوى لكونهم كانوا أقرب إلى الإسلام. وعند مَن هو أحقُّ بالإسلام منهم لا تَظْهَر خوارقهم، بل تظهر خوارقُ مَن هو أتمُّ إيمانًا منهم، وهذا يُشبه ردَّ أهل البدع على الكفار، بما فيه بدعة، فإنَّهم، وإنْ ضَلُّوا مِن هذا الوجه، فهم خيرٌ من أولئك الكفار، لكن من أراد أن يسلُك إلى اللَّه، على ما جاء به الرسول، يضرُّه هؤلاء، ومَن كان حائرًا نفعه هؤلاء»[٣].

ويزيد في رُجحان ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية، أن الشيخ أبا بكر الرفاعي، قال قبل أن يقتحم النار: «اللَّهمَّ إنَّ هذا دينك الحقّ، فانصرنا على هؤلاء السحرة»[٤].

«كراماتٌ» ومَقامات!

قال ابن السراج: «روينا أن سيدي تاج الدين- رحمه اللَّه- قَدِمَ مرة إلى هولاكو في أمْرٍ طَرَأ، وصُحْبَتُه جماعةٌ مِنَ الموَلَّهين، **رُكَّابِ الأسود،**

---

(١) يعني الخَوْلاني، وصفه الذهبيُّ بسيد التابعين، توفي سنة ٦٢ للهجرة.

(٢) يعني الرفاعية.

(٣) كتاب النبوات، لابن تيمية، (١/١٥٧-١٥٩).

(٤) ذيل مرآة الزمان، لليونيني (٢/١٠٩٠-١٠٩٤). طبعة أبو ظبي.

ومقارِعُهم الحيَّاتُ[١]، فنَفَرَتْ خيول المُغْلِ، وسمع هولاكو الجَلَبَةَ، فخرج من خيمته مُنكِرًا، فقال سيدي تاج الدين: لا بأسَ، قَدِّمُوا للأُسود الضيافة. وقد سَكَنَ الوقتُ، فقَدَّموا لكلِّ أسدٍ كلَّ شيء مِنَ الخيل فأكله، وسكن مكانه، ثم اجتمع سيدي تاج الدين بهولاكو، وقال: قد رأيتَ حالَ المولَّهين، ونُرِيكَ أمرًا آخَرَ، أحضِرْ لنا أقْطَعَ سمٍّ عندكَ.

فأحضروا وِعاءً فيه سُمُّ ساعةٍ، فقال: ضَعْ لنا منه في طَشْتٍ ما شئتَ لِنَمْزجَه بالماء، ويَشربه الفقراء، فوضع منه شيئًا، فقال سيدي تاج الدين: ما يكفي، فقال: بل يكفي!

ثم وَضعَ على كِسْرةٍ مِنَ السمِّ قَطرةً، وألقاها إلى كلب، فأكلَها فهلَك لساعَتِه، ثم قال: لم يبقَ في عنقي مِن دماءكم شيئًا، ثم شرِبَ الفقراءُ السمَّ، وعملوا سماعًا طيِّبًا، وكان كل خير.

فقال هولاكو: مهما كان لكم مِنَ الحوائج ارسُموا إليَّ حتَّى أقضِيَها على رأسي! فقالوا، واقترحوا عليه، وأطاعَهم وأكرمهم. والساقي الذي أحضَرَ وعاء السم، كان أصلُه من حلب، وصار ساقيًا لهولاكو، ونحن اجتمَعْنا به، وهو فقيرٌ مؤدب، يُقال له: الحاجُّ إبراهيم، ومات مجاهدًا في اللَّه بوَجْهٍ ما! رحمه اللَّه تعالى».

ثم قال: «روينا أن سيدي تاج الدين - رحمه اللَّه تعالى - حضر مرة عند السلطان أحمد خان - رحمه اللَّه تعالى - ابن هولاكو، المسمَّى باسم الجناب الأحمدي[٢]، وعملوا الفقراء بحضرته وحضرة أمراء دولته سماعًا

---

(١) اقرأ هذا الوصف متخيِّلًا إيَّاه!

(٢) الأحمدي - هنا - نسبة إلى شيخ طريقتهم أحمد الرفاعي. وانظر ترجمة سلطان المغل أحمد بن هولاكو في: تاريخ الإسلام، للذهبي (١٥/٤٩٣).

عظيمًا، وقالوا: لابدَّ أن نرى مِثْلَ النار التي أُوقِدَتْ في أيام هولاكو، فقال الفقراء: باسم اللَّه، فلما أوقدوها، كما اختاروا، ودخل فيها الفقراء إلى أن غابوا عن العيون، واخْتَطَف سيدي تاجُ الدين صغيرًا من حِجْر السلطان أحمد- إمَّا ولده، وإمَّا أخوه- ودخل به في النار، ثم خرجَ الفقراءُ، وانطفَتِ النارُ، ولم يخرجْ، فقال بعضُ الكَفَرةِ، مِنَ التتار: إنْ لم يخرجْ بالصغير سالمًا، وإلا قتَلْنا الفقراءَ، وجميعَ المسلمين، واغتنَمَ أمثالُه من أعداء الدين غَيْظَ السلطانِ أحمدَ، بسبب الصغير القَمَرِيِّ الطلعة.

ثم بعد ساعتين خرج، والصغيرُ معه، في أحسنِ حالٍ، ومعهما أنواع الفواكه والمشموم الذي يعرفونه في تلك البلاد، وعليهما النضارة بخلاف ما توَّهموا مِنْ أنهما إذا خَرَجا سالميْن كان عليهما مِنَ ا لرَّماد وغيره شيء كثير.

ثم سألوا الصغير، فقال: كُنَّا في بساتين وفواكه وأنهار ورَيحان، ولم نرَ نارًا ولا غيرها من المؤذيات، فتعجب القومُ من ذلك غاية العجب، وانتصرَ الحقُّ وخُذِل الباطل، وحصَلَ للفقراء من الإكرام والاحترام ما لا يوصف، بذلك السبب، واللَّه أعلم!».

ثم قال: «روينا أن سيدي تاج الدين - رحمة اللَّه عليه - حضر مع أولاد المشايخ، المطْلُوبين مِن زوايا آبائهم، بسبب مرافعةٍ وقعت في حقِّهم، مِن أنهم يأكلون الأوقاف والفتوحات على أسماء آبائهم، وليس عندهم من أوصاف الفقراء شيء، عند السلطان محمود غازان، وأسقطوا ما في أيديهم بسبب عدم الأحوال الباطنة، فقالوا: مالنا إلا سيدي تاج الدين، فدخلوا عليه، فقال: لا بأس، نحن عُضْوٌ واحدٌ. ثم اجتمع بغازان محمود خان، وقال: لا حاجة لك بالاعتراض على الفقراء، ولا يغرنَّك ما نقله أعداء هذه

الطائفة من مسلم وكافر! وبعد ذلك أحضِرْ لنا سمَّ ساعةٍ نشربه كُلُّنا، فإن سَلِمْنا كُنَّا على الحق، وإن مِتْنا استراحَتِ الأرضُ منَّا. فأحْضَرَ ذلك ممتحنًا مكثرًا، فمزجوه في طَشْت - كما فُعِلَ في أيام هولاكو - فشربوه، فلم يكن إلا كل خير، ورجع غازان محمود عنهم، وأكرم أولياءهم، وأهان ضدهم، وكتب لهم الفرامين - وهي المراسيم - بالإكرام والاحترام، وعدم التعرض إليهم بوجهٍ، على ممرِّ الأيام».

وقال: «روينا أن سيدي تاج الدين - رحمة اللَّه عليه - حضر مرة عند غازان محمود بسببٍ يُشبه ما تقدم، فقال له شخص في المجلس سرًّا: قُلْ له يُرينا آيةً الساعة. فقال: باسم اللَّه، وأخرج من كُمِّه بطيخةً صفراء في غاية الحسن، في غير وقتها، فبُهِتوا، وكان يومًا مشهودًا.

فإن قيل: كيفَ كان هولاكو كافرًا، ثم يُحكى عنه مثل ذلك، ومن جملته قوله: لم يَبْقَ في عنقي مِن دمائكم شيء؟!

قلنا: كان كافرًا، وإنما الملوك يجتمعون بعلماء وفضلاء من الإسلام وغيرهم، ولهم عقول وافرة يُدبِّرون بها المُلك، وفي الغالب يَظهر لهم الحقُّ، وإنما يَمنع بعضهم من إظهار اتِّباع قومٍ قوةُ نَفْسٍ وجبروت!! فنحن نرى ملوك الإسلام -بعض الأوقات- يطرأ لهم أحوال بسبب قوة النفْس بالملك، لولا قليل قيل عنهم أشياء! وهذا - هولاكو- عَمل عليه النصارى بسبب زوجةٍ له يقال لها: (ظفر خاتون)، وكانت قد تنصَّرتْ - والتُّرك يَنْفَعِلون لنسائهم كثيرًا - فقالت: أريد أن أرى منهم شيئًا، فأشارت إليهم، في عيدٍ مِنْ أعيادهم، بزِينة كنيسةٍ لهم معروفة، واحتفال عظيم، بحضور علمائهم ورهبانهم وغير ذلك، وسار الملكُ إليها ليلًا، وقد طلع صاحبُ الناقوس يَضْرِب به على سطحها، وقبالة الكنيسةِ مسجدٌ للمسلمين، وفي

منارته مؤذنٌ صَيِّتٌ، قد طلع - أيضًا - يُسَبِّح، فسمع هولاكو تسبيحَه، وضَرْبَ الناقوس، وبينهما بَوْنٌ - أي فَرْق - عظيمٌ، فقال: هذا هو الحق. ورَجَعَ، ولم يدخل الكنيسة، واللَّه أعلم بما كان يجري، فإنهم يعتنون بدينهم عظيمًا، ولهم قراءة صُنْعِيَّةٌ، بقِسِّيسِين وشمَّاسِين وأرغون - ويُسمَّى الأرغن، [وهو] شيءٌ عظيمٌ من آلات الطَّرَب - يُحرِّكونه مع ذلك بحيث مَن سمعه بغير عادة صرخ، فلا يفيق إلا بعد ساعة ! واللَّه وَفَّقَ بالصوت الحسَنِ مِنَ المؤذن، فلذلك يعملون المساجد في جوار الكنائس، وكذلك ينبغي أن يكون المؤذنُ حسن الصوت لِيَقْبَلَه السامعُ، بخلاف الصوتِ السَّيئ، فإنه يُقَسِّي القلبَ، وفي ذلك حكايات منها أنه كان مؤذنٌ حسن الصوت في بلد ...» إلخ.

حتى قال: « ومما روينا أن هولاكو لما رفع السيف عن أهل بغداد، بعد القتل أربعين يومًا، في سنة ست وخمسين وستمئة (٦٥٦هـ)، نزل في منزله، فلما أصبح رَحَل، فوجد قتيلًا مسلمًا، فوقف وطلب النُّقَباء، وما بَرِح حتَّى عرف من كان نازلًا هناك، فاستحضره، فاعترف، فأمر بتوسيطه، وإركاب المقتول عليه، وقال: نحن رفعنا السيف، وهذا ظلَمَك، وقد قتلناه وأركبناك إياه، فإذا كان يوم القيامة اركبه وتعال به إلى الموقف ليَحْكُم اللَّه بينك وبينه ![1]

ثم روينا أنه لما أخذ حلب سنة ثمان وخمسين وستمئة (٦٥٨هـ) رأى الشيخَ نبهانَ[2] - رضي اللَّه عنه - في منامه وأَمَرَه ونهاه، فأطاعه، وقال: سمعًا وطاعة للشيخ نبهان ! وكذلك روينا أنه لما نزل على حرَّان، رأى في

(١) ما أشبه هذا الكلام بكلام المستهزئين بالبعث والنشور !!

(٢) لم أجد له ترجمة، ولعله نبهان بن غيار الحبريني. انظر: تاريخ ابن الوردي (٢/٢٢٨).

منامه الشيخ حياة بن قيس رضي اللَّه عنه[١]، فأمَره ونهاه، وقال: أنا خَفِير هذه البلدة ![٢] فأصبح مذعورًا، وقال: هو رَجُل أعرج ؟ فقالوا: نعم ! فأطاعه في كل ما قال.

وأمَّا السلطان أحمد، فإنه ملَك بعد أخيه (أباقا)[٣] وحَسُنَ إسلامه !! وكاتَب الإسلامَ وراسلَهم، فلم يقع ذلك موقعه، بالأمر المقدَّر، وصار مستغرَقًا في محبة الفقراء والصلحاء، فعُمَل عليه في السماع، وأخرجوا ابنَ أخيه (أرغون خان)، فقتَل السلطانَ أحمد، وملَك هو.

---

(١) الأنصاري الحراني، الشيخ الصالح الزاهد، المتوفى سنة ٥٨١هـ. وقد بلغ من غلو أهل حرَّان في تعظيمه أنهم كانوا يحلفون به. انظر: الوفيات، لابن رافع السلامي (١/٢٩٤). وقال ابن الوردي في تاريخه، فأعظم الفرية: «وهو أحد الأربعة الذين يتصرفون في قبورهم كتصرف الأحياء ! ».
تاريخ ابن الوردي (٢/١٣٦). واقرأ تعليق شيخ الإسلام ابن تيمية على هذه الخرافة في كتاب الرد على الأخنائي (ص ٥٣).

(٢) قال ابن السَّرَّاج: «فيما روينا أن هذا الشيخ، محمدًا الحليق [ت٦٩٠هـ] قال لَه الجماعة: لم لا تُصلِّي ظاهرًا ؟ فقال: لنا في ذلك أسرارٌ ! فزادوا عليه، فقال: صَلَّيْتُ مرَّة ركعتين، فخربتْ مدينة حرَّان !- مع أنَّ خفيرها الشيخ حياة بن قيس رضي اللَّه عنه - فقالوا: لا بُدَّ أن تصلِّي ! فصلَّى ركعتين، فما فرَغ منهما إلا وقد أرسل اللَّه تعالى سحابًا، ورعدًا، وبرقًا، وغيثًا لا يُطاق، في غير وقته، بحيث أيقنوا بالهلاك السريع، فجاؤوه مستغيثين مستجيرين، فقال: يا قوم ؛ ألم أقل لكم لا تعترضوا على أسرار اللَّه تعالى ؟! فقالوا: ما هو وقت العِتاب، اِرْحَمِ الأطفال والدوابَّ. فلما زادوا عليه فتح طاقًا، وقال: أتريد إهلاكنا ؟! فما تَمَّ كلامه إلا وقد كشف اللَّه تعالى ذلك، وذهب به كأن لم يكن ! **ونقول:** هذا فيه من الأسرار أمر عظيم لا يفهمه إلا من قد وفَّقه اللَّه تعالى ! ». انظر: تفاح الأرواح، (المنقول ٢٨٤). قال أبو الفضل القونوي: وهذه « المنْقَبَة » جمَعَتْ من أشكال تَرَدِّي العقل والعلم أعاجيب ! ليس بأقَلِّها التناقض في قُدرات الوليِّ الخفير عندهم، فبَيْنا يرون أنه يزداد بالموت تصرُّفاً، حتى لكأنه السيف إذا سُلَّ من غِمْده ! إذا بحليق لا يصلي يأتيهم فيُخربها عليهم، عقيدتهم وحرَّان وغير حرَّان ؟ !

(٣) ابنا هولاكو.

وهذا - أرغون - هو أبو غازان محمود، وخربنده، وكان ظاهرُهما الإسلام، وخربنده معناه: غلامُ الحِمار، فلما مَلَك كتبوا في سِكَّتِه: خُدابنده، ومعناه: غلامُ اللَّه، وبينهما بَوْن كبير، فإنه في اللفظ متقارب، وكلُّ ما نذكره لفوائد، واللَّه أعلم».[1]

ومناسبٌ أن يقال هنا، كما قال الإمام الذهبي (ت٧٤٨هـ): «لو أُثنيَ على هولاكو بكل لسان لاعترف المُثنِي بأنه مات على ملَّة آبائه، وبأنه سَفَكَ دَمَ ألفِ ألفٍ أو يزيدون، فإن كان اللَّه تعالى- مع هذا- وفَّقه للإسلام، فيا سعادَتَه، لكن حتى يَصحَّ ذلك!»[2].

ونقل العلامة أبو حيَّان الأندلسي (ت٧٤٥هـ) أن هولاكو سأل أصحابه: «مَنِ الملك؟ فقالوا: أنت، الذي دوَّختَ البلاد، وملَكت الأرض، وأطاعت لك الملوك! فقال: لا، الملكُ هذا - وكان المؤذِّنُ، إذ ذاك، يؤذِّن - هذا الذي له أزْيَد مِنْ سِتِّ مئة سنة، قد مات، وهو يُذْكَر على المآذن، في كلِّ يوم خمس مرات! يريد محمدًا رسول اللَّه ﷺ».[3]

وقال الإمام ابن كثير: «وقد كان هولاكو ملِكًا جبَّارًا، فاجرًا كفَّارًا، لعنه اللَّه، قتَل مِن المسلمين، شرقًا وغربًا، مالا يَعلم عددهم إلا الذي خلقهم، وسيجازيه على ذلك شرَّ الجزاء. كان لا يتقيَّد بدِين من الأديان[4]، وإنما كانت زوجتُه (ظفر خاتون) قد تنصَّرت، وكانت تُفَضِّل النصارى على سائر الخَلْق، وكان هو يَترامى على محبة المعقولات، ولا يَتصَوَّر منها

---

(١) تفاح الأرواح، لابن السَّرَّاج. (من المنقول ٣٤٦ إلى المنقول ٣٤٩). قلت: لو أنه ترجم كلمة (بَنْدَه) بالعبد لكان أوضح. وانظر: ذيل مرآة الزمان، لليونيني (١٠٩٨/٢).

(٢) تاريخ الإسلام، للذهبي (١٠٧/١٥).

(٣) البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي: (١٩/٨).

(٤) وبتعبير آخر عصري: كان لا دينيًّا، عَلمانيًا!!

شيئًا ! وكان أهلُها - من أفراخ الفلاسفة- لهم عنده وجاهةٌ ومكانة، وإنما كانت هِمَّته في تدبير مملكتِه، وتَمَلُّكِ البلاد شيئًا فشيئًا، حتَّى أباده اللَّه في هذه السَّنة، وقيل في سنة ثلاث وستين (٦٦٣هـ)، ودفن في مدينة (تلا)، لا رحمه اللَّه ! ».[١]

محمد بن سَكْران[٢]، هل كان من الخفراء ؟

إن تفسير شأن هذا الصوفي ونجاته يوم مذبحة بغداد، وسلامة داره التي ذُكر أنها كانت بالجانب الشرقي منها لشأن مريب بحق، وهو يُذَكِّر الباحثَ بنجاة برهان الدين الترمذي (ت٦٤٢هـ)، شيخ الجلال الرومي، قبل مذبحة بغداد بسنين، حين أوقع المغولُ بأهل مدينة (قيصرية) في الأناضول مقتلة مفظعة، فلم ينج منها فيما يُعلَم سوى البُرهان الترمذي، بل نالته عطاياهم وتعظيماتهم، واستَوْزَروا أحد مريدِيه، فلما مات بذلوا المال، فبنَوْا على قبره بَنِيَّة من تلك القباب التي تشاهد أمثالَها في تركيا اليوم[٣]. وأمَّا أمر ابن سكران، فإنه يُفهَم أنه كان على اتِّصالٍ ما بوزير هولاكو، ومستشاره الأول، النَّصِير الطُّوسي[٤]، ولا يُدرى فلعل هذا المستشار الطوسي العميل، ذا العلاقات بكبار الصوفية، كالصدر القونوي (ت٦٧٢هـ)، قد كافأه حين رأى من عقل ابن سكران غفلة و« سذاجة »، فأقنعه برسائل منه أن هذا قضاء اللَّه تعالى، وأنَّ المغول يريدهم اللَّه، وهذا أمر معروف في الرسائل التي كان الطوسي يحرِّرها باسم هولاكو، كقوله في رسالة لملوك المسلمين على

---

(١) البداية والنهاية، لابن كثير: (٤٦٨/١٧).

(٢) تاريخ الإسلام، للذهبي (١٤٦/١٥).

(٣) مناقب العارفين، للأفلاكي (٢٢٦/١، ٢٣٣-٢٣٥).

(٤) الحوادث الجامعة والتجارب النافعة، المنسوب لابن الفوطي (٣٩٧، ٣٩٨).

لسان أسياده: « إنَّا نحن جند اللَّه في أرضه، خَلَقنا من سَخَطه، وسلَّطنا على مَن حَلَّ به غضبُه »، وقال في رسالة أخرى: « إنا قد فتحنا بغداد بسيف اللَّه ...»[١] فخلط لهم الإرادة الشرعية بالكونية، ويزيد من احتمال كونه من المحمِيِّين، ما ورد في خبرَيْن أحدهما: ما ذكره المؤرخ - رَبِيب النصير الطوسي والمغول- ابن الفُوَطي (ت٧٢٣هـ)[٢]، مِن أن الخليفة المستعصم قد استدعاه، وصوفية آخرين، لكي يدعو اللَّه بالخلاص من محنة المغول، فكان جواب ابن سكران: إنَّ الأمر قد فَرَط، وقد ﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يوسف: ٤١][٣]. وكذلك لا يُشَكُّ أن التاجر شهاب الدين بن النحَّاس (ت٦٦٧هـ) كان ممن سبق أن أخذ من المُغْل فرَمانًا، يفهم هذا من عدم تعرُّض المُغْل له، ولمن احتمى به، ويرد أنه ممن اشتروا أرواحهم بأحمال الذهب ![٤].

كلام ابن تَيْمِيَّة عليه:

يُفهم من كلام شيخ الإسلام ابن تَيْمِيَّة أن محمد بن سكران قد شَهِد دخول هولاكو بغداد، ورآه من كَثَب، بل وكانت المسافة بينهما من القُرْب بحيث يَبْلُغه صوتُ جوابِ شيخ صوفي قَلَنْدَرِي كان آخذًا بلجام فرس هولاكو، ذلك الجواب الذي بان منه سذاجة ابن سكران، وعقيدة الصوفية

---

(١) تاريخ مجموع النوادر، لقرطاي العزِّي، (١٦٢، ١٦٧).

(٢) كان ابن الفوَطي ممن نجا من مذابح المغول في بغداد، إذ كان مراهقًا، وأُسِرَ، فحصل في يد الطوسي، فأخذ عنه. ولولا أنه ليس من شرط كتابي لكان بينهم. وانظر ما قال عنه الذهبي في المعجم المختص (١٤٤/١-١٤٥)، وذيله على سير الأعلام (المطبوع باسم ذيل التاريخ) (ص٢١٠-٢١٢).

(٣) مجمع الآداب، لابن الفُوَطي (٩٣/٥).

(٤) المقتفي، للبرزالي (١٩٦/١).

الفاسدة في القَدَر[١]. وإنَّ رؤياه التي رأى فيها أحد علماء بغداد ممن غَدَر بهم المغول، وأنه سأله: ما فعل اللَّه بك؟ فقال: « كفَّرتْ ذنوبَنا سيوفُهم »[٢]، لَتحتمِل ما تحتمل! ومِن خير ما تحتمل أنه تنبَّه من غفلته بعد لك، واستيقظ، كما استيقظ عقلٌ صوفي - فيما أحسب- حكى شيخُ الإسلام ابن تَيْمِيَّة - أيضًا- أنه قال كلمةً يوم المقتلة العظمى، والسيفُ يحصد أهل بغداد في الطُّرقات والبيوت، قال: « أين القطب؟! أين الغوث؟! هذا السيفُ يعمل في أُمَّة محمَّد! »[٣]. يعني أين خفير بغداد؟! ومع هذا فليس ما تقدَّم بكاف في عدِّه خفيرًا مواليًا للمغول، فقد يكون لنجاته سببًا لا يُرمى لأجله بعمالة، فيكون كأبي بكر بن قوام الشيخ الجليل الزاهد (ت ٦٥٨هـ)، الذي وقعت مجزرة حلب، وهو بها، فلم يُقتل، وقُتل مَن كان في منزله، الذي حرقوه، وكان هو نازلاً في المدرسة الأسدية، وما يُعلم أنها من المواضع التي عصم المغول دماء من دخلها، فاللَّه أعلم بسبب نجاته.[٤]

وحين سأل السلطان بَيبرْس بعد كسر المغول في معركة (البُلستين) عند (قيساريَّة) تاج الدين الرفاعي بقوله: « لم لا تجيء إلى بلادنا ونُضاعف لك الإكرام؟ » كان جوابه: « نحن إقامتنا بـ (أمِّ عُبيدة) فيها فوائد عظيمة، منها أن نجعل الذئب يَرعى مع الغَنَم إن شاء اللَّه تعالى! ».[٥]

قال أبو الفضل القونوي: والحقُّ إن في قول تاج الرفاعيةِ صحَّة

(١) الفتاوى، لابن تيمية (١٣/٢١٨).

(٢) ذيل طبقات الحنابلة، لابن رجب (٤/٢٥).

(٣) جامع المسائل، لابن تَيْمِيَّة (ص١٠٨).

(٤) تاريخ الإسلام، للذهبي (١٤/٩٠٥).

(٥) تشويق الأرواح، لابن السراج، (الورقة ١٢٩).

تاريخية، فقد كان لشيوخ التصوف مساعٍ وُفِّقت، في تحبيب الإسلام إلى المغول، فأسلَموا، وتركوا استئصال البشر، واكتفوا بأخذ الأموال، ومع هذا، فإن تلك الذئبيَّة فيهم لم تنقطع بعد إسلامهم، بل بقيَتْ سنين طويلة في دولتهم، لبقائهم على تعظيم (الياسا) - دستور جنكيز خان- مع ما ثقفوه من شيوخ البدعة، مما جعل لهم نصيبًا وافرًا من حديث: «وإن اللَّه ليؤيِّد هذا الدين بالرجل الفاجر»[١].

ولهذا يفرحُ ابن السَّرَّاج ومَن شابهه، فيقول: «أمَّا تأثيرات ذلك[٢] في استسلام الأقاليم الكبار، وهداية الجحافل العظيمة، كجنس التتار، فإنه لا يشك فيه عاقل، ولا يتمارى فيه إلا جاهل، عن الحقِّ والحقيقة غافل، وعن الصواب والإصابة ذاهل!»[٣].

وقوله: «... ونقول: بمثل ذلك اتَّعظ ملوك التتار، وغيرهم، وأسلموا، وصاروا غلمان الفقراء، فهُمْ (المغول) خير من الفقهاء المنْكِرين!»[٤]. لكن يقال هنا: مهلًا يا قاضي البيرة وحصن كختا! إنهم أدخلوهم في إسلامٍ لم يتركوا معه كثيرًا من جاهليَّتهم، فإسلامهم منحرف، وقد لا يكون إسلامًا أصلًا. وقد رأى ابن تَيْمِيَّة مِن حالهم بعد إسلامهم عجبًا، فذكر أنه كانت لهم أصنام صغار، من لبد، وغيره، يتقرَّبون إليها، كما كانوا يعظمون النار، ولا يعلمون تحريم ذلك في الإسلام[٥].

---

(١) رواه الدارمي، (رقم الحديث ٢٥١٧). وانظر معلومات عن وقعة بَيْبَرْس والمغول، في «البُلستِين»، في كتاب: تشويق الأرواح (الورقة ١٢٩ -١٣٠).

(٢) يعني المخاريق التي عُرف غلاة الرِّفاعِيَّة بها.

(٣) تشويق الأرواح، لابن السراج (الورقة ١٢٤).

(٤) تشويق الأرواح، (الورقة ١٣٤).

(٥) كتاب الرد على الأخنائي، لابن تيمية (ص ٣٠٤).

الخفير الخارق محمد الرصافي!

كان صاحب « استعراضات » يجريها أمام المغول، من ذلك أنه كان « يتمرَّغ ظهرًا لبطن على أعظم ما يكون وقود النار، وكان يشرب الرَّصاص المذوَّب، ويأخذ ورقة بيضاء، أو غير بيضاء، فيضعها في كفِّه، ثمَّ يفركها، فتخرج درهمًا فضَّة صافية [...] ثم يُريهم إيَّاه، ثم يفركه أخرى، فيخرج مسكوكًا بسكَّة الوقت الحاضر، ثم [...] أصحابه في مصالحهم. فإن قيل: لم لا جعله من أول مرة مسكوكًا؟ قلنا: الذي فعله أكثر تمكينًا، وأعظم إيضاحًا وتبيينًا! وكان معه قوس صغيرة، قَدْر شِبْرَيْن، معلقة في صَنْجَق[1]، فإذا رأى أحدًا من المغول، أو غيرهم، قد بدا منه موجِبُ أدبٍ، أخذ القوس، وأشار، كأنه يرمي بسَهْم، ثمَّ يقول: اِختَرْ، فيك، أو في الفَرَس؟ فإن كانوا قد سمعوا خيرًا، أو في الحال يُرشدهم أحد، ألقى الفارس بنفسه إلى الأرض، واستجار، إن كان موفَّقًا، وقد قُدِّرت له سلامة، ويقول: في الفرَس يا سيدي! فيُطْلق كأنه رمى الفرس، فتقع مَيتة، وبعض الأوقات، إما لخفَّة الذنب، وإما لحُب التوبة، يعود ينفخ في أُذن الفرس، فتقوم بإذن اللَّه تعالى! »[2].

ويُذَكِّرنا هذا الرصافي بمتصوِّف آخرن ظهر في بُخارا سنة ٦٣٧هـ، يبدو أنه كان خفير المسلمين - النَّوْكَى منهم - يُعرف بأبي الكَرَم الدَّاراني: « كان يُرِي الناسَ الأعاجيب من أنواع الشَّعْبَذة، ويأمر إنسانًا أن يرميه بسَهْم فتثْقُل يده ولا يستطيع ذلك، فكَثُر جَمْعُه وتلقَّب بالمهْدِي، وأمر بقتل النصارى واليهود ببُخارىُ ونَهْب أموالهم، فقُتلوا ونُهبوا، وقال لأصحابه: إني قادر

(١) الصنجق: الراية.
(٢) تشويق الأرواح، (الورقة ١٣٤).

على قتل المغول وكسْرهم بنَفْسِي ومن يتبعني بقدرة اللَّه تعالى من غير احتياج إلى سِلاح. فتبعه خَلْق كثير، فنهض على شحنة بخارى ومن معه من العسكر فقتلهم، وانضَمَّ إليه بعد ذلك جَمْع عظيم، فبلغ (جَرْماغون) خبره، فعَظُمَ عليه، ونَفَّذَ عسكرًا وشحنةً إلى بخارا، فخرج إليهم أبو الكَرَم في ألوفٍ كثيرة، وأمرَهُم أن لا يصحب أحد منهم سِلاحًا!! فلما التقوا أحجمَ عنهم المغول، فأقدمَ واحدٌ من أمرائهم، وقال: أريد أن أجرِّب، فإمَّا أن أقتله، فيُقْدِم العسكرُ عليهم ويقتلوهم عن آخرهم، وإما أن أهْلِك كما يزعمون. ثم حَمَل على أبي الكرَم فقتله، فأكبَّت العساكر عليهم فقتلوهم، فلم يُفلت منهم إلا اليسير، ويقال: إن عِدَّتهم كانت نحوًا من ستين ألفًا!»[1].

خفير مغولي للمغول!

قال ابن السرَّاج: «نحن نروي عن عَدْل، قال: رأيتُ في بلاد التُّرك رجُلًا مِنَ المغول، وجَرى لي معه فصولٌ، دَلَّتْنِي على أنه مِن أربابِ القُلوب، وإنْ أنكَرَ عليَّ عِرْفاني مَنْ ليس له فَضْلٌ بل عنده فُضولٌ، فلازَمْتُ صُحْبَتَه، وأطَلْتُ عِشْرَتَهَ، واغْتنَمتُ إكرامَه، واستَعْذَبْتُ أيَّامَه، وتملَّيْتُ بكراماتِه، وتَعَرَّفتُه بعلاماتِه، وصَدَّقْتُه بآياتِه، وسألتُ عن بداياته ونهاياته، فرأيتُ رجلًا قليل الشَّبيهِ، لا يَخفَى حالُه على الفَطِنِ النَّبيه، ما بين كَشْفٍ وتصريفٍ، وعِرفانٍ وتعريفٍ، وعلمٍ وعقلٍ، وقولٍ ونقلٍ، ومُروءةٍ تامَّة، وفُتُوَّة عامَّةٍ، وفصاحة في البيان، وسماحة في البَنَان، فكنت مسرورًا بلقائه، في ليلي ونهاري، مغتبطًا بما يَرِدُ مِن تِلقائه، في حَرَكتي وقراري.

(١) الحوادث الجامعة والتجارب النافعة، المنسوب لابن الفوطي (ص ١٥٦- ١٥٧)

ومِنْ جُملة ما جَرى لي معه، أنه قال لي يومًا: يا فلان! لابُدَّ مِنْ دخول التَّتَارِ البلادَ، وأنا خَفِيرُهم يا وَلَدِي، إلى أن أُدْخِلَهم دمشقَ المحروسة! على صِفَةِ: كَيْتَ وكَيْتَ، في السَّنَة الفُلانية، وتخرب حلب، وتجري ما صورته: كذا وكذا- بشرحٍ طويلٍ- وتكون علامتي أنِّي راكبٌ جَمَلًا، ويَدِي اليُمْنَى مرفوعة أبدًا، إلى أن أدْخُل دمشقَ فأضعها، **وذلك بأمْرِ اللَّه تعالى!! لِيَنْتَقِم بهم ممن يشاء، ويَرفَعَ بهم درجةَ من يشاء.**

يا ولدي: واللَّه، واللَّه، واللَّه - وغَلَّظَ الأيمانَ عظيمًا - إنَّني لا أُوثِرُ ذلك! ولا أختارُه إلا لمرادِ اللَّه تعالى ومشيئتِه وأمرِه المطاعِ، وهو الحكيم الخبير! ولقد سألتُ اللَّهَ تعالى - غيرَ مرَّةٍ - الإعفاءَ مِن خِفارة هؤلاء، والإراحَةَ منهم جُملة كافية، فجاء الخطابُ الخاصُّ، الذي يَعرفه الأولياءُ والخَواصُّ: أن لا إقالة من ذلك، ولَنا فيه مشيئةٌ! فما الحِيلَةُ يا ولدي؟! ويكونُ اللقاءُ بَيْني وبينك، في المكانِ الفُلاني. قال: فواللَّه لقد جَرَى ما ذَكره الشيخُ مِنْ أوَّلِه إلى آخره، لم يَنْخَرِمْ منه ذَرَّةٌ!! سنةَ ثمانٍ وخمسين وسِتِّ مئة، ومعهم هولاكو.

فانظرْ إلى هذه الواقعة العظيمة، ودَعْ عنك المراءَ بالباطل، فنحن - بحمد اللَّه تعالى- لم يَبْقَ عندنا، في ذلك، شَكٌّ ولا رَيب، بل هو أظهر عندنا من شمس النهار، ولنا في ذلك يَدٌ طُولى! ومباحثُ وتَنقيبٌ وتَفتيشٌ، ورَزَقني اللَّهُ تعالى عليه اطلاعًا، وكشفًا، واجتماعًا بأهله في أطوارٍ شَتَّى!»[1].

وقد سَمَّى لنا منهم - كما مرَّ بك - مَن يحتمل أنه كان قَلَنْدَرِيًا: الحاجّ إبراهيم الحلبي، الذي كان يَسقي رأس العُتاة وسُلطانهم (هولاكو) الخمر،

(١) تشويق الأرواح، لابن السراج (الورقة ٢٠٥).

وإنْ لم يَذكر ذلك ابن السَّرَّاج.

و اعترف أن رؤوس الحُكم المغولي قرَّبوا شيوخَ زمرته الرِّفاعِيَّة في عصره، وابنُ السَّرَّاج مصدرٌ وثيق إذا تحدَّثَ عنهم، وذاك قوله السابق: «أكْرَمَ أولياءهم، وأهان ضدَّهم، وكَتب لهم الفَرَامِين (يعني: الفرمانات)، وهي المراسم بالإكرام والاحترام، وعدم التعرُّض إليهم بوجه على ممرّ الأيام!». ونقل اليونيني أن (أباقا) أعفى قرى أم عبيدة من الضرائب.[١]

ويحسُن أن تُسجَّل هنا معلومة مهمَّة ذكرها ابن السَّرَّاج، وهي أن المغولي خدابندا (ت٧١٦هـ)، كان يعظِّم شيخ الرِّفاعِيَّة: عليَّ بن تاج الدين الرفاعي، وأن الشيخ لما مات دفنه في عاصمتهم (السلطانية)، وبنى على قبره بَنِيَّة، ووقف عليها وقفًا، ثم أوصى أن يدفن عنده! والحق إن هذا التعظيم لم يَخْل من فائدة للمسلمين، قال ابن السراج: «... لَّما شاع أمْر الرَّفض بالبلاد الشرقية[٢] وغالبِ مملكة خَرْبندا بن أرغون بن أبَاقَا بن هولاكو، ملِك التتار، المتشيِّع في دولته، صار ينادِي بعضُ غُلاةِ الرافضة في الموصل، وغيرها: الغَزاة الغَزاة، في كذا وكذا، وأهلِ دمشق، الفَعَلة الصَّنَعة، الفَرِحين بقتل مولانا الحسين! إلى غير ذلك، وقال بعضهم: إن لم يكْسِر هذا - خربندا- جيشَ مصر والشام، علَّق الأبعدُ في عنقه صليبًا!

ولقد جرى في هذه الفتنة أمور، وظهر فيها قبائح لا تكاد تُشرح، ممن يدَّعي الرفض والتشيُّع، وهؤلاء في الحقيقة أعداء الملَّة المحمديَّة، لا ريب فيه عند كل عارف، وأما ترفُّض خربندا، فقد ذكروا له أسبابًا أوضحها، أنه أحبَّ التزوُّج من بنات المغول، لحسنهن وجمالهن المعروف، والشرع لا

---

(١) ذيل مرآة الزمان، لليونيني (١٠٩٣/٢).

(٢) كان ذلك سنة ٧٠٩هـ.

يبيح له سوى أربع نسوة، وقال هو: لا أكتفي ذلك. فرأى بعض الراسخين في العلم، لا كعلماء وقتنا الواقفين مع الأغراض النفسانية ...»، ثم قال بعد أن حمَل بشدَّة على علماء لم يُسمِّهم، أغلب الظن أنهم تلاميذ شيخ الإسلام ابن تيمية: «رأى ذلك العالم الراسخ أنَّ تَرْكَ خربندا على ما هو عليه موجِب لتزلزله، وحُنوِّه على الدين الضلالي، ورجوعه يقينًا إليه، وفي ذلك من البلاء ما فيه، ومن الهلاك ما لا يمكن جَبْره ولا تلافيه، وأن فُتْياه بقول مَن كان مِن العلماء هو الصواب المحض، بعد مراجعة كل دليل، ومراعاة كل قليل وجليل، فقال: في مذهب الشيعة: يتزوج الإنسان بسبع نسوة جَمْعًا، وعلى قولٍ عندهم: يجوز بأكثر من ذلك، وإن أنكر نقْله من يجهل المسالك! فلذلك صار خربندا شيعيًّا. اتَّصل بنا ذلك من ذوي الخبرة بالحال، وإن قيل في ذلك - ومثله - حكايات وأقوال، وكان ذلك بكل المصالح أجمع، ولأكثر المفاسد أمنع وأرفع.

فإن قيل: لم لا نسبتَ[1] فتياه بعد قولك: الراسخين في العلم؟ قلنا: لوجوه، منها: أن ذلك دالٌّ على الاهتمام بتقريع المعتدين، ومنها أن كثيرًا يقرؤون الفتيا، ولا يقرؤون وصف المخالفين، فتضيع الفائدة!

واعلمْ أن الرافضة الطاغية، وجَهَلَتهم الباغية، اغتنموا هذه الواقعة، ففتحوا أبواب الشَّرِّ، وأوقدوا نار الحرب[2] إلى أن أطفأها اللَّه تعالى بما لطفه، وردَّهم ﴿لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥].

---

(١) كذا هي بخط ابن السراج، وكان عليه أن يقول: (لِمَ لَمْ تنسب).

(٢) أكبر الظن ابن السراج الدمشقي وجَّه الاتهام إلى الشيعة بأنهم كانوا وراء الحملة المغولية التي سارت إلى الشام سنة ٧١٢هـ، ثم كفى اللَّه تعالى شرها.

ونقول: كان من أسباب ذلك أن السُّنة - نصرهم اللَّه تعالى- قصدوا سيدي علي بن سيدي تاج الدين الرفاعي-رضي اللَّه عنهما- فجاء إلى خربندا، إلى السُّلطانية، وأنكر عليه، فقال: أضلَّنا فلان - المعروف بالَّاوي- وقال: إنه يُبْطِل كراماتكم بسحره، فقال: أوقِدوا نارًا عظيمة، بقريبٍ من عشرين ألف حِمْلِ حَطَبٍ ومسامير، فشبت [...] يومًا وليلة، فصارت جهنم الدنيا ! ثم رفَع سجادته فوقها- وفي رفعِها آيات، فإن هواءها يمنع لُبْثها عليها- وصلَّى ركعتين، وقال: باسم اللَّه ! فدخلها الفقراء، ثم أخَذ هو ابنَ الملك، وقالوا: إنه كان أبا سعيد[1]، وقيل: بل كان من ألزامه. ودخل به النار، فقالوا: هَلَك ! وهمُّوا بقتل الفقراء، وغيرهم يقينًا، ثم خرجا، وفي يده تفاحٌ وريحان، وكان ذلك يومًاعظيمًا عند المصدِّقين. وسَلَّم خربندا اللاوِيَّ إلى السُّنة، بعْدَ عظيم منزلته عنده، فباعوا لحْمَه كل وزن درهم بدرهمين - تَشفِّيًا- ويُغفر لهم ذلك إن شاء اللَّه تعالى، وقتلوا من الرافضة خلقًا كثيرًا، واستقامتِ الأحوال، فلعن اللَّه من يفرِّق كلمة الإسلام، وعجَّل هلاكه والسلام. وروينا أنه نبع موضع النار عينٌ لم تعهد هناك، فقبح اللَّه من ينكر على أولياء اللَّه تعالى، وله الخيبة والخسار، والخزي والدمار. ونقول: وإن لم يثبُتْ أكل لحم اللاويِّ، لكنه قد قُتل، وكفى بذلك نكالًا لأهل الفضول والتضليل ! »، حتى قال: « وكذلك وقَع لمفْتٍ آخَر، استفتاه بعض ملوك التتار، في تزوُّج زوجة والده[2]، فقال

---

(١) وَلِيَ مُلك المغول بعد والده، خربندا، وكان أقل شرًا منه، مات سنة ٧٣٦هـ. قال الصفدي إن اسمه ليس كما يظنه الناس (أبو سعيد) على أنه كنية، بل الصحيح أنه لا يبدأ بالهمز، فهو: (بُو سعيد). انظر: أعيان العصر (٦٨/٢).

(٢) المعنِيُّ هنا: غازان، وأبوه: أرغون. وزوجته: بلغان خاتون.

المفتون: لا يجوز. فهَمَّ بالرِّدَّة، فقال المفتي الخبير، الطالب لمصالح الخلق: نبحث عن أصل العقد، فوجده باطلًا، فقال: كانت معه زانية، والزِّنا لا أثر له عندنا. وزوَّجه إيَّاها. ولم نذكر ذلك ومثله إلا عِظَة وغَيرةً وتعليمًا وإرشادًا، وطلبًا لصلاح الدارين، والله أعلم! »[١].

وقد سأل ابن نوح القوصي (ت٧٠٨هـ)، أحد قضاة المغول: كيف يزعم غازان الإسلام وقد نكح زوجة أبيه؟ فقال: إن الذي أفتاه بذلك هو الناظر على المدارس: أصيل الدين بن النصير الطوسي (ت ٧١٥هـ)، زاعمًا أن ذلك على مذهب الشافعي[٢]. وقد نقل الصفدي تعليله دون أن يشير إلى ذلك، ولكن أشار إلى إبقاءه على الإسلام كان مقصده كما أشار له ابن السراج[٣].

وحُكي أنَّ خربندا كان قد جهَّز جيشًا في ثلاثة آلاف فارس من رافضة خرسان مع حُمَيضة بن أبي نُمَي (ت٧٢٠هـ) - وهو من أمراء مكة، وكان أهل السنة في الحجاز به في غمٍّ شديد - وِجْهتهم المدينة النبوية، لنبش قبر صاحبَيْ رسول الله ﷺ، أبي بكر وعمر - رضي الله عنهما - وإخراجهما من جواره، لكن الله تعالى حفظ قبر نبيِّه وصاحبيه، فهلك خربندا قبل مرور أسبوع على إصدار أمره اللعين، واعترض ذلك الجيشَ المغوليَّ المترفضَ جيشُ الأمير محمد بن عيسى، أخو سلطان العرب مُهَنَّا (ت٧٣٥هـ)، وقهرهم، وشرَّد بهم، وذكر النُّوَيري (ت٧٢٧هـ) أن من بين المغانم الكثيرة، التي غنِمها العربُ الفؤوس والمجارف التي كان المغول المترفضة

(١) تشويق الأرواح، (الورقة ١٦٣-١٦٤).

(٢) الوحيد في سلوك أهل التوحيد، لعبد الغفار بن نوح، (الورقة ١١٩).

(٣) أعيان العصر، للصفدي (٤/٩)، والدرر، لابن حجر (٣/١٢٧).

أعدُّوها لنبش القبور الشريفة[١].

ويفهم مما أخبر به الأفلاكيُّ في (مناقب العارفين)[٢] أنه كان لابن الجلال الروميِّ، المعروف بـ (سلطان ولد) محاولة -أيضًا- لوقف تَرَفُّض خربندا، وأنه ما أن بلغه أنَّ الرافضة الذين نعتهم الأفلاكي في الخبر بـ« الطائفة التي قالت: لولا صاحباك لَزُرْناك! »[٣] قد أَوْعَزَتْ إلى خربندا، (وذلك قبل إرسال الجيش لنبش الحجرة الشريفة)، أن يُخرج جثمان الصديق والفاروق من جوار القبر الشريف، وأنه أرسل لهذا الأمر جماعة منهم إلى المدينة النبوية، يتحيَّنون الفرصة لجريمتهم، حتى نادى ولده (عارف جلبي) وأمره بالتوجه من فَوْره إلى السلطانية، لنصيحة خربندا، إلا أن وفاة (سلطان ولد) بُعَيد أمره لابنه عارف جلبي بالسفر، في سنة ٧١٢هـ، أخَّر رحلة المذكور إلى سنة ٧١٥هـ، ولم يذكر الأفلاكي، الذي رافق شيخه في الرحلة، أن لقاء وقع بينه وبين خربندا، وإنما كان همُّه جعل هلاك خربندا سنة ٧١٦هـ من كرامات شيخه!![٤]

---

(١) نهاية الأرب، للنويري (١٨٧/٣٢، ١٩٢)، وتاريخ ابن الوردي (٣٧٨/٢).

(٢) أحمد الأفلاكي، شمس الدين، صوفي مولوي، يُعتبر كتابه (مناقب العارفين) المصدر الأساس لكل من كتب عن المولوية. أُطلق عليه لقب (الأفلاكي) - فيما قيل- لتعلمه علم الفلك، كان مريداً لحفيد الجلال الرومي (عارف جلبي)، ولذلك كان يكتب: الأفلاكي العارفي، مات في مدينة قونية سنة ٧٦١ هـ.. انظر: مقدمة محقق المناقب للمؤرخ التركي تحسين يازيجي (ص ١١-١٤).

(٣) قالها رافضي هلك قديمًا، يقال له: مقلَّد بن المسَيَّب. قال عنه الذهبي: (وفيه رفْضٌ وحش)، تاريخ الإسلام (٧٠٨/٨).

(٤) مناقب العارفين، للأفلاكي (٤٥١/٢-٤٥٥).

الخفير الشاعر جلال الدين الرومي!

قال أحد الكتاب الأتراك من المعاصرين: «مِنَ المعروف أن «مولانا» كان يَرى أنَّ استيلاء المغول على الأناضول، واحتلالهم لها، كان نتيجةً لإرادة اللَّه، فلذا كان يرى طاعتهم لازمة مشروعة.»[١]، فهذا كلامُ دارسٍ مُغْرَم بصاحب المثنوي، متأثِّرٍ بضلاله، وليس بكلام خصومه من العلماء بالشريعة.

وأشبه الجلالَ الروميَّ (ت٦٧٢هـ)، في ذلك، محيي الدين بن الزكي (ت ٦٦٨هـ)، فقد كان من المعظِّمين لـ (هولاكو)، ونال منه مكافأة ذلك تعيينه في منصبِ قاضي القضاة، وغير ذلك من الحُلْوانات التي يكافئ به المحتل الغاصبُ عملاءَه. وكان هذا القاضي أحد مريدِي ابن عربي، وقال عنه اليونيني (ت ٧٢٦هـ): «له عقيدة في الفقراء والصالحين، يتلقَّى ما يحكى عنهم من الكرامات بالتصديق والقبول، وصحِب الشيخَ محيي الدين، محمد بن العربي، رحمه اللَّه، وله فيه عقيدةٌ تجاوزُ الوصفَ!»[٢].

بيْدَ أنَّ المفهوم من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية، غير ما أخبر به اليونيني، فقد قال، وهو يعني ابن الزكي هذا: «... حتَّى إن رجلًا كبيرًا من القضاة، كان من غلمان ابن عربي[٣]، فلما قَدِمَ ملك المشركين التُّرك هولاكو خان المشركُ، الشامَ، وولَّاه القضاء، وأتى دمشق، أَخَذ يُعَظِّم ذلك الملك، الذي فعل في الإسلام وأهله ببغداد، وحلب وغيرها من البلاد ما قد شهرَ بين العِبادِ، فقال له بعض مَن شهِده مِن طلبة الفقه ذلك الوقت:

---

(١) مختارات مما كتب عن «مولانا»، للكاتب التركي: وداد كَنْج، (ص ١٩٧).

(٢) ذيل مرآة الزمان، لليونيني (٣٢٥/١).

(٣) انظر تعليقه على تسمية أنفسهم بهذا في: الفتاوى، لابن تيمية (٣٧٩/١).

« يا سيدي ليتَه كان مسلمًا ! »، فبالغَ في خُصومَتِه مبالغةً أخافَتْه، وقال: « أيُّ حاجةٍ بهذا - يعني هولاكو- إلى الإسلام؟ وأيُّ شيء يفعلُ هذا بالإسلام؟ سواء كان مسلمًا أو غير مسلم! »(١).

ليس عَجبًا - إذن- أن ترى قاضيًا رفاعيًا كابنِ السَّرَّاج، يَتَرَضَّى عن ابن الزكي، إلا يكن عن اعتقاد، فنكايةً بأبي العباس بن تَيْمِيَّةَ، وذلك حين مرَّ ذِكْرُه في موضع، فقال: « رضي اللّه عنه، وعن أمثاله، ورحِمَنا اللّه ببركاتِهم وحَشَرَنا في زُمْرَتهم »(٢).

وأنا أرجِّحُ أنَّ يكون ابن الزكيِّ صاحبَ البيتين الذين ما وُقِفَ على صاحبهما، وهما في المعنى يَنْطَبقان على معتقَدِه وعمالتِه للمغول، وهذين البيتين أوردَهما شيخُ الإسلام ابن تَيْمِيَّة في غيرِ ما موضعٍ من رسائله، وقد رجَّحتُ ذلك حين قال عن قاضٍ من القضاة بأنه صاحبُ لابن عربي، وهما:

ما الأمْرُ إلا نَسَقٌ واحدٌ ما فيهِ مِنْ حَمْدٍ ولا ذمِّ
وإنَّما العادَةُ قَدْ خصَّصَتْ والطَّبْعُ والشارعُ بالحُكْمِ(٣)

لقد كان للمُغْلِ مستشارونَ في شؤون الدولة، وكان بعضُهم قد عَرَضَ لأسيادِه تغيير دِينِه الوثنيِّ لمكاسِبَ سياسية، وحربية، وكان الصوفيُّ عبد الرحمن النجّارُ (ت٦٨٢هـ)، الذي يحتمل - جدًّا- كونه من الرِّفاعِيَّة القَلَنْدَرية، من أولئك، فقد أخبرَ أعرَفُ المؤرخين به، محيي الدين بن عبد الظاهر (ت ٦٩٢هـ) أنه كان صاحب مخاريق، وأنواع من الحيل، نالَ بها رُتْبَةَ المستشار، والوزير، عند المُغْل، وأنه الذي اقترَحَ على سلطانهم:

---

(١) الصفدية، لابن تَيْمِيَّة، (ص ٢٦٨).

(٢) تفاح الأرواح، (المنقول ٢٠٦).

(٣) جامع الرسائل، لابن تيمية (١/١٠٥).

أحمدَ بن هولاكو، (قُتِلَ بعد سنة ٦٩٢هـ)، أن يُسْلِمَ على جِهَةِ المَكْرِ والخِداع، حتَّى يَطمئن من جهة المماليك، ويَتفرَّغ لقتال قومِه، وأقاربِه، ووَلَدِ أخيه، فَمِثْلُ هؤلاء المستشارين هم الذين دَعَوْهُم للإسلام.

كيف كان الروميُّ يُسَوِّغ مظالم المغول؟!

أبْيَنُ ذلك أنه أسبَغ مشروعيةً ما على بداية خروجهم من الشرق مع جَنْكيزِهم، وهي الاقتصاص من الظالم لهم، خوارزم شاه (ت٦٢٨هـ)، الذي قَتل- وهو ظالم بالفعل - تجَّارًا دخلوا بلادًا تحت حكمه، ولنقرأ خَبَر ذلك من الرُّومي نفسِه، كما قيَّد ذلك مريدوه في كتاب (فيه ما فيه):

« قال أحدُهم: عندما جاء المغول أول مرة إلى هذه الولايات كانوا عراة ومجرَّدين، كان مركوبُهم الثيران، وأسلحتهم الخشب. أمَّا في هذا الزمان فهم محتشمون وشَبِعون، ولديهم خيول عربيّة مطهَّمة، وأسلحة جيدةً.

قال مولانا: في ذلك الوقت، عندما كانوا منكسري القلوب، وضعفاء، ولا قوَّة لديهم أعانهم اللَّه وأجاب دعاءهم. أمَّا في هذا الزمان الذي غدوا فيه محتشمين وأقوياء فإن الحق تعالى يُهلكهم بأضعف الخَلْق؛ لكي يعرفوا أنهم بعناية الحق ومَدَد الحقِّ استولوا على العالم، وليس بقوتهم وقدرتهم. في موطنهم الأول كانوا في صحراء، بعيدين عن الناس، لا حول لهم ولا قوة، مساكين! عراة! فقراء! من دون قَصْد، جاء بعضٌ منهم تجارًا إلى ولاية خوارزمشاه، وبدؤوا بالشراء والبيع، وكانوا يشترون الكِرْباس (ثوبٌ من القطن أبيض) ليغطُّوا اجسادهم. وقد منعهم الخوارزمشاه، وأمر بقتل تجَّارهم، وأن يُؤخذ منهم الخراج أيضًا، ولم يأذن لتجار بأن يذهبوا إلى هناك. مضى التتار إلى مليكهم متضرِّعين، قائلين: لقد هلكنا. طلب منهم ملكهم أن يمهلوه عشرة أيام، ودخل في كهف عميق؛ وهناك صام عشرة

أيام. وأظهر الخضوع والخشوع. فجاء نداء من الحق تعالى: «قُبِلَتْ ضراعتك وتوسُّلك. أُخرج: أينما ذهبتَ فستكون منصورًا». وهكذا كان. عندما خرجوا انتصروا بأمر الحق واستولوا على العالم!».

وسأله أحد جلسائه فقال: «يأخذ المغول الأموال، وبين الفينة والأخرى يعطوننا الأموال أحيَانًا. وهذا وضع عجيب. ما حكمك على ذلك؟ أجاب مولانا: كل ما يأخذه المغول قد دخل في قبضة الحق وخزائنه».

ثم ضرب لذلك مثلًا فقال: ألا ترى أنك حين تملأ إناءك أو قِربتك من ماء البحر يصبح الماء ملكك، فلا يمسه أحد مادام فيهما، ومن أخذه بغير رضاك عُدَّ غاصبًا؟ ولكن إن أرجعت الماء إلى البحر أصبح حلالًا للجميع، إذ ما عاد مِلْكًا لك، فالجواب والحال ما وصفت لك: إن ما أخذوه منا حرام عليهم، وأما أموالهم فحلال علينا!!(1).

قال أبو الفضل القونوي: رحم اللَّه - تعالى - أبا العباس بن تَيْمِيَّة، الذي دُعيَ إلى أكل طعامهم حين جاءهم ليكلمهم على مظالمهم، فامتنع من ذلك، والمائدةُ مائدة (غازان) الذي أعلن أسلامه يومئذ، فقيل له: لم لا تأكل؟ فقال: كيفَ آكل من طعامكم وكلُّه مما نَهَبْتُم من أغنام الناس. وطبختموه مما قطعتم من أشجار الناس؟ رجل كهذا الإمام، كيفَ لا تعاديه

---

(١) كتاب: فيه مافيه. جلال الدين الرومي، الفصل الخامس عشر والسابع عشر. ترجمة عيسى علي العاكوب، وقد ترجمت أنا بعضه عن ترجمة كلبينارلي إلى اللغة التركية، ص٥٤.

(٢) ورد ذلك في كتاب: (مسالك الأبصار) لابن فضل العمري، نقلاً عن كتاب الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تَيْمِيَّة (ص٣٢١).

دولة جنكيزخان – بعد ذلك – وتبُثُّ الدسائس حوله، وتجِدُّ في طلبه ؟ ![(١)]

وقد نقل ابن كثير من كتابٍ ألَّفه الوزير المغولي في بغداد، علاء الدين الجُوَيني، المعلومة التي ذكرها الجلال الرومي، بصيغة أخرى، فذكر أن جنكيزخان كان يصعد جبلًا، ثمَّ ينزل، ثمَّ يصعد، ثم ينزل، مرارًا، حتى يُعْيِيَ ويَقع مغشيًّا عليه، وأنه يأمر مَن عنده أن يكتب ما يُلْقَى على لسانه حينئذ. قال ابن كثير: « فإن كان هذا هكذا، فالظاهرُ أن الشيطان كان يَنطق على لسانه بما فيها »، يعني بما في كتاب (اليَاسَا) من قوانين مغولية. وأورَدَ معنى قريبًا مما نُقِل عن الرومي، وهو أن بعض عُبَّادهم كان يصعد الجبال في البرد الشديد للعبادة، فسمع قائلًا يقول له: « إنَّا قد ملَّكْنا جنكيزخان، وذريَّته، وجه الأرض ! » قال الجويني: « فمشايخ المغول يُصدِّقون بهذا، ويأخذونه مُسَلَّما ! »[(٢)].

قال الذهبي في مبلغ تعظيم المغول لجنكيزخان: « وأطاعوه طاعةَ أصحابِ نبيٍّ لِنَبيٍّ، بل طاعةَ العِباد المخْلَصِين لربِّ العالمين ! »[(٣)].

ويأتي التسويغ لما فعله المغول في بغداد في هذه الصورة. قال الأفلاكي: « روى أصحاب مولانا عنه أنه قال: جاء (هولاكو خان) إلى بغداد سنة٦٥٥هـ، وخاض معارك كبيرة، لكنَّها تمنَّعَتْ عليه، فأمر (هولاكو خان) قائلًا: لِيَمْتنع الجميع عن الطعام ثلاثة أيام، ولتُمنع الخيل كذلك، وليبتهل الجميع لخالقهم طلبًا لنُصْرة خاقانهم، وفتح بغداد.

ثم قال هولاكو: لعل اللَّه، مُفَتِّح كل الأبواب، يُيَسِّر لنا الفتح، فنقع

---

(١) تاريخ ابن كثير، (١٧/١٦٢). وانظر خبر قتل خوارزم شاه لتجار المغول في تاريخ الإسلام، للذهبي (١٣/٢٧٨)، وتاريخ ابن كثير (١٧/٧٩).

(٢) تاريخ الإسلام، للذهبي (١٣/٧٦٢).

على الغنيمة والثراء. وذلك لأن الخليفة ثريٌّ وغني، وبلغ الغاية في الطغيان!

وبعد انقضاء صيام الثلاثة الأيام، أقبل (هولاكو خان) إلى وزير مملكته، والمتصرِّف في جميع شؤون بلاده، نصير الدين الطوسي، وقال له: أُكتب إلى الخليفة ورقة من قِبَلي: فليطعني وليَدَع العصيان والعناد، لأن ذلك حُكم الخالق! وإن عاند فلن يظفر بشيء في النهاية، وإن أطاعنا نال الدولة والخلعة. وإني لأعلم أنه إن أبى ولم يأت إليَّ كان في ذلك ذهاب دولته وانقضاؤها.

فكتب الخواجة نصير الدين من فوره بكل ذلك في ورقة:

«أما بعدَ حَمْدِ اللَّه، فقد نزلنا ببغداد، ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾، فدَعَوْنا مالِكها فأبى، فحُقَّ عليه القول، فأخذناه أخذًا وبيلًا، وقد دعوناك لطاعتنا، فإن أتَيْتَ، ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾، وإن أبيتَ، فلأسلِّطَنَّ منك عليك، فلا تكن كالباحث عن حتفه بظِلْفه، والجادع مارِنَ أنفِه بكفِّه، والسلام!».

فيقولون: إن هولاكو خان بعث بالكتاب مع (كتبغا)، فلم يجِب الخليفةُ إلى الطلب، وعاند، وكتب إليه جوابًا سيِّئًا. فاستولوا على بغداد في اليوم نفسه، وأسروا الخليفة.

فإن كان الصيامُ عند مَنْ لا دِين لهم، ولا عِلم لديهم بالحقيقة، قد تسبَّب في نصرهم، فكيفَ يكون الحال عند أولياء اللَّه؟ وما تأثيره فيهم؟ قِسْ على ذلك!

قال الأفلاكي: ونُقِلَ -أيضًا- أنه لما وقعت بغداد في يد المُغْول، جاؤوا بالخليفة مغلول اليدين أسيرًا أمام هولاكو خان، فلما مَثُل بين يديه، قال: احبسوه في حجرة ثلاثة أيام، ولاتطعموه شيئًا. بكى الخليفة من شدة

الجوع كثيرًا، ونادى نصير الدين الطوسي، وسأله ما يأكله. قد كان الخليفة أكولًا شَرِهًا، أَلِفَ أكل أنواع الطعام، في رفاهية من العيش، فعَرَض الوزيرُ الطوسي أمره على هولاكو، فأمر هولاكو بأن تُقَسَّم الجواهر والنقود، التي استولوا عليها من خزائن الخليفة، على صِحاف الطعام، بعضها مِن اللؤلؤ، وبعضها من الياقوت، وبعضها من الذهب، وبعضها من الفضة، ثمَّ ذهبوا بها بعد أن غُطِّيَتْ بأغطية ووضعت أمام الخليفة، فظن الخليفة أن هولاكو قد تكرَّم وتفضل بإرسال طعام إليه! فلما رفع الأغطية وجدها خالية مما يؤكل أو يشرب، فقال: قد كانت قطعة خُبزٍ خيرًا من كل هذا. **فأجبروه على أن يأكل منها رغمًا عنه!**

وقال له هولاكو آخِرَ الأمر: إن كانت قطعة خبزٍ تكفيك، فلم أظهرت التعاظم، ولم تشكر نِعَم اللَّه - هذه - عليك؟ قد كفرتَ بها، فهذا ما لقيتَه! لِمَ لَمْ تُعْطِ هذه الأموال لِعَدُوِّك يوم شعرت بالهزيمة وبِغَلَبَتِهم؟ قد كان عليك أن تُعلن الطاعة، وتَبذل لي كل هذه الأموال لتنجوَ بنفسك، فأبيتَ إلا العصيان فلذا يجب عليَّ أن أقتلك! ثُمَّ أدخلوه في جوالِق، ورَكَلُوه حتَّى مات».[1]

الهَوْل في كائنة بغداد!

أثبت المؤرخون ما اجْتَرَمه ابنُ العلقميِّ في نكبة بغداد، وأنه مَن جرَّأ سلطانهم هولاكو، وكاتبَ قائده بايجو سنة ٦٤٤هـ[2]، وقوَّى عزمَه على اكتساحِها، بعد أن مهَّد لذلك مُذْ أواخر خلافة المستنصر باللَّه (ت ٦٤٠هـ)، بإنقاص عدد جند الخلافة، وكان مئة ألف رجل، فما زال يَكيد للدولة

(١) مناقب العارفين، للأفلاكي (١/٣٩٠).
(٢) سير أعلام النبلاء، للذهبي (٢٣/١٧٧).

كُيُوده حتى أنزل عددهم إلى عشرة آلاف، وكان يريد فيما سوَّلت له نفسه أن يوقف صلاة الجمعة والجماعة في بغداد، وأن يُقِيم بها خليفة علويًّا، وأن ينشر مذهب الشيعة بين السنة، وقرَّر مع المغول لنفسه أمورًا انعكست عليه، ولم يتمَّ منها ما أراد، وندم - بَعْدُ- حيث لا ينفع الندم، إذْ أطلق المغول لجندهم العنان، فأطْعَموا السيفَ الشيعةَ والسنةَ أُمَمًا لا تحصى، وباختصار للكلام، فقد أذاقوا مَن خان بعض ذلِّ الخيانة، ولم تَطُل أيامه بعد ذلك، فمات يتَجرَّع غُصَص الهوان.

و« يقال إن هولاكو لما وصلت إليه مكاتبة الوزير، تنكَّر، ودخل إلى بغداد، في زيٍّ تاجر، واجتمع بالوزير، وبأكابر الدولة، وقرَّر القواعد معهم، ورجع إلى بلاده، فتجهَّز وسار إلى بغداد في جموع عظيمة من المُغْل »(١).

فلما حُوصِرت بغداد، كان أول الخارجين إلى المغول الوزير مؤيد الدين بن العلقمي، خرج إليهم بأهله وأصحابه وخدَمه وحشَمه، فاجتمع بهولاكو، ثم عاد إلى قصر الخليفة، فأشار عليه بالخروج إليه، والمثول بين يديه، للاتفاق على مصالحة بَنْدُها الأهَمُّ: يكون نصف خراج العراق للمغول، ونصفه للخليفة. ويبدو أن ابن العلقمي أراد قتل أكبر عدد من أعيان بغداد، فتَكَذَّب له كذبة من كذباته، فقال للخليفة إن هولاكو، سيبقيك خليفة في بغداد، كما أبقى سلطانَ سلاجقة الروم في سلطنته، له الاسمُ، والطاعةُ للمغول، وقاس الوثنيين في ذلك بما كان من سلاطين السلاجقة المسلمين مع أجداده الخلفاء، وإيغالًا منه في المكيدة، حتى لا يترك

(١) روضة الأعيان في أخبار أعيان مشاهير الزمان، لمحمد بن أبي بكر بن دكين، (الورقة ١٧٧).

احتمالًا لهربه وسائر رجال الدولة، فقد كذب عليه أخرى، وقال إن هولاكو يريد أن يزوِّج ابنتَه من ابنه الأمير أبي بكر، وأن في موافقتك حقنًا لدماء المسلمين، فإذا انصرف عنك فعلتَ بعد ذلك ما تريد أن تفعل. وكان هو ومماليكه وأتباعه «ينهون النَّاس عن الرَّمي بالنشَّاب، ويقولون: سوف يَقَع الصُّلْح إن شاء اللَّه، فلا تحاربوا! هذا، وعساكر المغول يبالغون في الرَّمْي!».[1]

فخرج الخليفة إليهم، في سبعمئة راكب من سادات العلماء والقضاة، والفقهاء، والصوفية، ورؤوس الأمراء والدولة، وأهل الحلِّ والعقد، والأعيان، يظنون أنهم سيحضرون نكاح الأمير، فلما اقتربوا من خيمة هولاكو حُجِبوا عن الخليفة إلا سبعة عشر نَفْسًا، فخَلُصَ الخليفةُ بهؤلاء القِلَّة، وأُنزِل الباقون عن مراكبهم، ونُهِبَتْ، وقُتلوا عن آخِرهم، وأُحْضِر الخليفةُ بين يدَيْ هولاكو، فسأله عن أشياء كثيرة، فيقال: إنه اضطربَ كلامُ الخليفة من هَوْل ما رأى من الإهانة والجبروت، ثمَّ عاد إلى بغداد، وفي صحبته نصير الدين الطُّوسي، وابن العلقمي، والخليفةُ تحت الحَوْطة والمصادرة، فأحضَر من دار الخلافة شيئًا كثيرًا من الذهب والحُلي، والمصاغ والجواهر، والأشياء النفيسة، وقد كاد يقع اتفاقٌ تَسْلَم به الخلافة، وينجو به الخليفة، أو بتعبير المؤرخ في المصدر: «كان قد مَشَى حالُ الخليفة» بأن يكون للمغول نصف دَخْل البلاد، وما بقي شيء لِيَتمَّ ذلك، ولكن ابنَ العلقمي اعترض قائلًا: ما هذه مصلحةٌ، والمصلحةُ قتْلُه، وإلا ما يتِمُّ مُلك العراق للمغول. وقال: متى وَقَع الصُّلح على المناصَفة، لا يَستمِرُّ هذا إلا عامًا أو عامَيْن، ثمَّ يعود الأمرُ إلى ما كان عليه قبل ذلك.

---

(١) الحوادث الجامعة والتجارب النافعة، المنسوب لابن الفوطي (ص٣٥٦).

وحسَّنوا له قتل الخليفة، فلما عاد الخليفة إلى هولاكو، أمر بقتله. ويقال إن الذي أشار بقتله مع ابن العلقمي مستشار هولاكو، نصير الدين الطوسي. فقتلوه، قيل خنقًا، وقيل غمُّوه في بساط حتى مات، وقيل رَفْسًا - وهذا الأشهر - بعد أن وضعوه في جُوالق لئلا يقع على الأرض شيء من دَمِه! وهي خرافة اعتقدها المغول والأتراك، تزعم أن دماء الملوك إذا أريقت عند القتل على الأرض، فلا يؤمَن على قاتله القتل- ولو بعد حين - ثأرًا له. وكان مع الخليفة خادم يقال له: قرنفل، بلغ من وفائه أنه ألقى عليه نفسه ليَقِيَه من الرَّكل القاتل، فقتلوا الخادم، وعادوا إلى رفس الخليفة حتى مات. قال الذهبي: « ما أظنُّه دُفن، فإنا للَّه وإنا إليه راجعون. وكان الأمر أعظم مِن أن يوجد مؤرِّخٌ لموته، أو مُوارٍ لجسده. وراح تحت السَّيف أُمَم لا يحصيهم إلا اللَّه، فيقال إنهم أكثر من ألفِ ألف. واستَغْنَتْ التتار إلى الأبد، وسَبُوا من النساء والولدان ما ضاق به الفضاء! ».

جاءَ التتارُ فأردَوْهُ وبلدتَهُ فليلْعَنِ اللَّهُ والمخلوقَةُ التَتَرا(١)

فمازال القتل بأهل بغداد، والسَّبْي والتعذيب الشديد، لاستخراج الأموال، مدة أربعين يومًا، قتلوا خلالها النساء، والرجال، والأطفال، أهل البلد، وأهل سائر القُرى، ما عدا أهل الذمة، النصارى واليهود، عيَّن لهم هولاكو جنودًا حرسوهم، وانضمَّ إليهم بَشَر، فسلِموا. وكذا سلم أهل الحلَّة والكوفة، وهم من الشيعة - أمَّنَهم هولاكو - وبعث إليهم مفرزة من جند المغول. وكان ببغداد عدَّة من التجار سلِموا بما لديهم من الفرمانات، بذلوا عليها أموالا جزيلة، حتى سَلِموا، وسَلِمت أموالهم، ومَن التجأ إليهم من

---

(١) تاريخ الخلفاء، للسيوطي، (ص٥٢).

الخلْق، وكذا سلِم مَنْ دخل دار ابن العلقمي، ودار ابن الدامغاني، صاحب الديوان، ودار ابن الدوامي الحاجب، كما نجا رجل من المغنِّين، اشترى روحه وأرواح أهل دَرْبه الذي يسكنه بالأموال الكثيرة، والجواري الحسان، وبالموسيقا والغناء، الذي أسمعهم إيَّاه، فأمروا له بخمسين من فرسانهم يحمون دربه، ورَكَزُوا على أعلى بابه أحد أعلام هولاكو الخاص به[١].

وما عدا ذلك ما سلِم إلا مَن اختفى في بئر أو قناة، وأُحرقت مُعْظَم المدينة. وكانت أعداد القتلى في الطُّرق كالتُّلول. وأمَّا مَن سلم وظَهر بعد رفع السيف، من البغاددة، فهم أناسٌ كثيرون دخلوا في الآبار وأماكن الحشوش، وقني الوسخ (المجاري)، وكمنوا كذلك أيامًا لا يظهرون. وحين خرجوا خرجوا كالموتى من القبور، رعبًا وجوعًا وبَردًا فقد كانت المذبحة في شهر يَنايِر وهو من شهور الشتاء.

وقد حاولت جموع من البشَر الاحتماء بالخانات (الفنادق)، فدخلوها، وغلَّقوا عليهم الأبواب، ففتحها المغول، إمَّا بالكسر، وإما بالنار، ثم دخلوا عليهم، فهرب أُناس منهم إلى أعالي الأمكنة، والأسطح، فلحقوا بهم وذبَّحونهم، حتى لقد جَرَتِ الميازيب من الدماء على الأزِقَّة، «حتى صار الدَّم في أزقَّتها كأكباد الإبل»[٢]، وكذا المساجد والجوامع والرُّبُط، لم ينج ممن لجأ إليها أحد، وأحرق معظم البلد، وجامع الخليفة وما جاوره، «ويقال إنهم بنَوْا إصطبلات الخيول، وطولات المعالف بكتب العلماء، عوضًا عن اللَّبِن!»[٣] وصارت بغداد بعد أنْ كانت آنَس المدن

(١) ثمرات الأوراق، لابن حجّة الحموي (ص ٤٦١-٤٦٦).

(٢) روضة الأعيان في أخبار أعيان مشاهير الزمان، (الورقة ١٧٧).

(٣) روضة الأعيان، المصدر السابق نفسه.

وأجملها، كأنها خراب ليس فيها إلا القليل من الناس، وهم في خوف وجوعٍ، وذلَّة وقلَّة.

أمَّا عدد القتلى يومئذ فقد قيل في ذلك أقوال، فقيل ثمانمئة ألف، وقيل ألف وثمانمئة ألف، وقيل بلغت القتلى ألفي ألف نفس، وقد سقطت عليهم الأمطار، فتغيَّرت صورهم، ووطئتهم الخيول، وأنتنَت من جِيفهم بغداد، وانتشرت الأمراض المصاحبة لذلك، فكان البلاءُ بالوباء بلاء إضافيًّا، مات من جَرَّائه الكثير من الناس، حتى قيل: اجتمع على الناس الغلاء، والوباء، والفناء، والطعن، والطاعون، فإنا للَّه وإنا إليه راجعون![1]

فأنت ترى أن نظرة الجلال الرومي لهذه الصور المرعبة، والمظالم المهولة كانت نظرة استحقاق لما نزل بهم، لعصيانهم، فبَنى هو وأمثاله على ذلك نتيجة يحبُّها المغول ومستشاروهم، ألا وهي الاستخذاءُ أمام جَوْرهم والتسليم لهم، وتَرْكُ دَفْعِهم عن الأنفس والأوطان، بل وبلغت الحال ببعض هؤلاء الخدم والمستشارين أن يتكذَّب لهم ويقول إنَّ ذلك: أمْرُ الرسول ﷺ[2]، وعلى ما تقدَّم فإني أرى أن الذي اقترح أن يُكْتَب على سَهْم أثناء حصار بغداد: «إذا أراد اللَّهُ أن يُنْفِذَ قضاءه سَلَب ذوي العقول عقولَهم» ثم أَمَر بتسديد رميه إلى بعض نوافذ قصر الخليفة ليقرأه، هو واحد من أولئك الخَدَم الذين يفكرون لأسيادهم.

هل هو نفاقٌ في اعتقاد عقيدة محرَّفة؟

قال الأفلاكي: كان مولانا يقول في شخص القائد المغولي (بايجو) في

---

(١) تاريخ الإسلام، للذهبي (١٤/٨٢٠-٨٢١)، وتاريخ ابن كثير (١٧/٣٥٩-٣٦٤). الحوادث الجامعة والتجارب النافعة، المنسوب لابن الفوطي (ص٣٥٤-٣٦٠).

(٢) الفتاوى، لابن تَيْمِيَّة (١٣/٢١٧).

أحايين كثيرة: كان (بايجو) وليًّا، لكنه لم يكن يعرف هذا ![١]

وروى الأفلاكي - أيضًا- أن الوزير معين الدين البروانة سأل مولانا يومًا: متى ستنقضي دولة جنكيز خان التي تُطْلِقُ أنت على جيشهم كلمة: عساكرنا؟ وما هي عاقبتهم؟

فقال مولانا: إن مولانا بهاء الدين ولد[٢] لما عزَم على الخروج من (بَلْخ)، وقد آلمه إيذاء خوارزم شاه وأتباعه إياه، دعا اللَّه باسمه المنتقم أن ينتقم منه، فسلَّط اللَّه عليهم جيش المغول الذي لاحدَّ له، ولانهاية. ثم قال: إن نهايتهم تحل إذا أهانوا سلالتي وآذَوْهم.[٣]

وفي كتاب (فيه ما فيه) نجده - أعني الوزير البروانة - يخاطب الرومي بقوله: «في السابق كان الكفَّار يعبدون الأصنام ويسجدون لها. ونحن في هذا الزمان نفعل الشيءَ نفسَه. فنحن نذهب ونسجد للمغول ونخدمهم، ونعدُّهم مسلمين. ولدينا الكثير من الأصنام الأُخَر في باطننا أيضًا، من الحرص والهوى والحقد والحسد، ونحن نطيعها كلها. وهكذا نقوم نحن - أيضًا - بالعمل نفسه ظاهرًا وباطنًا؛ ثُمَّ نعدُّ أنفسنا مسلمين.

قال مولانا: ولكن هنا شيء آخَر مختلف، في أنه يدخل في رُوعكم أنَّ هذا السلوك سيئٌ وغير مُرْضٍ البتَّة. فقد رأت أعين قلوبكم شيئًا عظيمًا إلى حدٍّ بعيد، يُظهر لكم هذا السُّلوك قميئًا وقبيحًا ...»[٤].

---

(١) مناقب العارفين، للأفلاكي (١/٤٥٤).

(٢) (بهاء الدين ولد) هو والد الجلال الرومي، مات في قونية سنة ٦٢٨هـ.

(٣) مناقب العارفين، للأفلاكي (٢/٥٨٠-٥٨١).

(٤) كتاب فيه ما فيه، أحاديث جلال الدين الرومي (الفصل السابع عشر)، ترجمة عيسى العاكوب.

وفي خبر أورده قَرَطاي العِزّي، قال وهو يؤرخ لسنة ٦٧١هـ: «وفيها وصلَت الأخبار بأن الخطيب ببغداد خطَب ودعا لعساكر المسلمين، فلما بلغ (أباقا) ذلك غضب غضبًا شديدًا، وطلب الخطيب وقال له: أنت تدعو لعساكر المسلمين؟ قال: نعم!

قال (أباقا): ولم؟

قال: لأنَّا نحن المسلمون، وأنتم عساكرنا!

قال: فأعجَب ذلك (أباقا)، وقال للخطيب: افعلْ ما تختار»[1]. كأنه بلغه كلمة الرومي فيهم، فاستعارها منه!

وكان الجلال الرومي يذمُّ التركمان- وكانوا أعداء المغول - كلما سنحَتْ له بذلك فرصة، بل ويصفهم بوصف برَّزَ المغولُ فيه على العالمين، فرووا أنه لما أراد صلاح الدين (المعروف بصلاح الدين زَرْكوب) أن يَفْلح أرضه، ويعتني ببستانه، آجَرَ بعض عَمَلَةِ التُرك لذلك، فلما رآهم الجلال الرومي أتراكًا قال: أيها السيِّد، يلزمك لتُصلح البستان عَمَلَة مِن الرُّوم، أمَّا إن ابتغيتَ إخرابها فيلزمك عَمَلَة من الأتراك، ذلك لأن إعمار الدنيا خُصَّ به الروم، أمَّا هدمها فخصَّ به التُّرك! ثم قال: إن خراب قونية سيكون على أيدي الأتراك الظالمين[2].

وقال الأفلاكي: «روى أصحاب اليقين، أيَّدهم اللّه بنوره المبين، عن

---

(١) تاريخ مجموع النوادر (ص ٢٤٨)، قلت: ونقل صاحب (الجواهرالمضية ١/٧٠) عن كتاب معجم شيوخ أبي العلاء الفرضي (ت٧٠٠هـ) نقلًا ورد فيه تعبيره عن الجيش المغولي في عهد أحمد بن هولاكو بلفظة (العساكر الأحمدية)، فلا يُدرى ما الذي دفعه لذلك، غير أني أرجح أنه فعل ذلك تحرُّزًا.

(٢) مناقب العارفين، للأفلاكي، (٢/٣٠٥).

(الأخي) محمد السيدابادي، الطاهر، المتجرِّد تجرَّدَ عيسى، سلطان أرباب الفتوة، ومن قال فيه مولانا: هذا أخي. روَوْا عنه أنه قال: كان الوقتُ وقتَ حصادٍ، وكانت لي أرض واسعة مزروعة قمْحًا، فتحصَّل منها قدر من القمح كثير، فإنَّا على ذلك، وإذ بجيوش المُغْل تملأ صحراء قونية، فجعل عسكر المُغْل يبعثرون المحاصيل ويصادرونها، وكان مولانا قد ألبسني (فرَجِيَّة)[1] فأمرتُ الخادم قائلًا: ألْقِ تلك الفَرَجِيَّة المباركة على المحصول حتَّى لا يُمَسَّ قمحُنا - ببركتها- بسوء! فعَلِمَ اللَّهُ - وكفى باللَّه شهيدًا - أنهم صادروا جميع محاصيل جِيرَتي، سواء القريبة إلى محصولي أو البعيدة عنه، ولا واللَّه ما أخذوا حبَّةَ قمحٍ مِن محصول قمحي، بل ما حامَ أحدهم حوله، وما افتقدتُ منه عُودًا، ثُمَّ إني جئت قونية بالمحصول كله، وأقمت للضيفان الولائم، فلما جئت البلد ذهبت إلى مولانا، فاستقبلني مبتسمًا، وقال: لو شاء (الأخي) إنقاذ الآخرين (دَفْعَ المصادرة عنهم) لفَعَل!».[2]

قال الأفلاكي: «ونقلوا - أيضًا- أن مولانا كان مع الأصحاب في وقت يتحدثون، وكان أحد الأصدقاء يَعْزِف على ربابته عزفًا إلهيًّا! فكان مولانا يخبرهم بأسرار هذا العزف والغناء! فبَيْنا هم كذلك إذا بشيخ المشايخ، كبير الفضلاء، شرف الدين الموصلي، رحمه اللَّه، يُقبِل ومعه بعض الأمراء، في تبليغ رسالة من البروانة معين الدين، فسبقهم بالدخول أحد المقربين إلى مولانا وهو الخواجة مجد الدين المراغي، في عجلة، وقال. مِن بلاهته. لعازف الربابة: أوقِفِ العزفَ، لأن الكبراء قادمون! وبعد أن شرُفَ

(١) الفرَجيَّة: ثوب واسع طويل الأكمام يتزيَّا به علماء الدين.

(٢) مناقب العارفين، للأفلاكي (٢/ ١١٤، ١١٥).

الزائرون بزيارة مولانا، وخرجوا من عنده، ورافقهم كبار الأصحاب إلى باب المدرسة يودعونهم، قال الشيخ شرف الدين للخواجة مجد الدين: لقد أعطوا ألفي دينار حتَّى تكون ثمن أحذية أصحابنا (يعني المولوية)، فلما أخبر المجد مولانا بأمرها، احتدَّ، وقال: لا أنت تَبقى، ولا ذلك المال يبقى، ولا جامدو القلوب، أولئك الموتى يَبْقَون. قد دخلتَ علينا دُخولًا حسِبتُ به أن نبيًّا يُقْبل إلينا، أو أن جبريل الأمين نَزَل !! نحن في شغل عنهم بخاصَّةِ أمرنا، فمن أراد أن يأتي إلينا فَعَل، ومن أراد الرحيل ذهب، فما بالك مضطربًا، لا تتمالك نفْسَك ؟ **(ترجمة شعر)**:

جاء ثورٌ، وارتحلَ حمار، فما لنا ولهما   الآن طاب الوقت فذَرِ النقَاش

فارتمى الخواجةُ مجدُ الدين - إثْرَ هذا - على قَدَمَيْ مولانا المليك، وجعل يستغفر، فعفا عنه، وقال: خُذ هذه الدراهم، واذهب بها إلى الجلبي حسام الدين، فليصرفها فيما يَنُوب المريدين.

لقد كان الخواجة مجد الدين غنيًّا، صاحبَ ثروة، وخيرٍ وصِلَةٍ، قد أنفق كل ما لديه من مال وأملاك فداء لمولانا، حتَّى إنه خصص جوائز من أقمشة الهند، خاطها قمصانًا وفرَجيات وأثوابًا، ومن أحذيتها وخفافها، وجعلها في صناديق، فكلَّما أحبَّ مولانا أن يُتحف المغنِّين والناسَ الحاضرين في السماع قام مجد الدين بذلك عنه. لقد كانت مكانته عند مولانا عظيمة، وعندما هجم هولاكو بجيش من جيوشه على الأناضول، ناشرًا الخراب، ودُهِشَ المسلمون واضطربوا غاية الاضطراب، وكان لمجد الدين ألف شاة سمينة، فتحيَّر ماذا يفعل بها؟ أين يذهب بها؟ أين يضعها؟ فقصد إلى مولانا، وحكى له غمَّه وحيرته، فقال له مولانا: لا يَغُمنَّك ذلك، فإني جاعل على شِياتك أُسْدًا تحفظها من الذئاب الضارية!

فاجتالَ عسكرُ المغول كل سائمةٍ حول قونية، وما نقصَتْ. بعناية اللَّه. من شياته شاةً، ولا حَمَل ! ».

الرومي في مدينة حلب:

كان الجلال يختفي عن أنظار مريديه وأهل بيته أيامًا، فقد اختفى مرة في رمضان كله، حتَّى عثروا عليه داخل بئر معطَّلة، فزعم لهم أنه كان معتكفًا فيها ! ومن قوي الاحتمال أن إطالته الوقوف في نافلة حين حضر صلاةَ جمعةٍ حتَّى انتهت الصلاة، وانصرف الناس إلى بيوتهم، وهو لم يركع بعدُ إنما كان تمهيدًا لاختفاءاته، ليقال: لعله يتعبَّد في موضع ما !

ومن ذلك اختفاؤه أربعين ليلة، لم يعلم أقرب المقرَّبين إليه فيها أين ذهب، حتَّى أراهم نفْسَه مختبئًا في موضع من مخزن حمَّام !، وهذه المدة تكفي للسفر على بريد ذلك الوقت إلى حلب ثم العودة إلى قونية.

فإذا رُبطتْ روايات الأفلاكي عن اختفاءاته برواياته الأخرى التي فيها ذِكْر جَيْئاتٍ للجلال إلى الشام، ورَوْحات له، لتَبَدَّى لك أمر ممكن حدوثه، فسترى أنه كان قد سافر إلى حلب أوائل سنة ٦٥٨هـ، أيْ قبيل اجتياح المُغْل لها، تقول الرواية: « نزلتْ بمولانا ذات يوم نازلة من عالم الغيب، فاعتراه لذلك حال، فجَعل يَلُوث عمامته المباركة كالأعراب، ويربطها تحت عنقه ويتنقَّلُ بهيئته هذه أربعين يومًا، وإذ به ذات يوم طلع عليَّ، والعَرق يتصبَّب منه، وقال: أسرِجْ لي تلك الفرس. فجهَّزناها له بعد عناء كبير، وجئت بها إليه، فركبها واتجه من فوره إلى جهة القبلة (يعني الشام)، وكنت قد سألته: هل يرافقك عبدُك ؟ فقال: كُنْ معي بهمَّتِك ! ثم إنه عادَ بلَيْلٍ، وقد عَلَتْه غبرة وأتربة، وفرسه منهوكة، ثم إنه ذهب في اليوم التالي كذلك، وكان قد طلب فرسًا أجود من الأولى، وعاد عند صلاة المغرب، وقال عند عودته في اليوم

التالي، وهو رَخِيّ البال جذلان بيتًا بالفارسية معناه:

بُشرى لك أيتها الجُموع الرافلة في الوَحدة

لقد وَلَّى كلْبُ النار، إليها قَدْ رَجَع.

ثم أخبر الراوي أن القوافل جاءت بأخبار مفادها أن المغول قد شدَّدوا من حصارهم على قلعة دمشق، وأنهم استولوا على حلب، وأن هزيمتهم التي كانت في عين جالوت. وإن لم يُسمِّيها. كانت بسبب مشاركة الجلال الرومي في المعركة، وقال: إن أهل دمشق قد رأوا الجلال الرومي بأمِّ أعينهم، وأنه إنما أتى لنصرة جيش الإسلام، وأنه مَنْ كسر جيشَ المُغْل حتَّى فَرَّقهم شَذَرَ مَذَرَ!

فأنت ترى تفسير الراوي للرَّحيل عن قونية في تلك الأثناء، وتعليل سَفَره إلى الشام كيفَ نُقِل إلى القونويين، ليكون في صورة «كرامة». وكذا رواية الأفلاكي الأخرى التي يخبر فيها أن الجلال ضرَب بجُمْعِ يده على أُذن سائق إبل القافلة ضربةً أسقطته من فوق جَمَله على الأرض، وذلك حين أراد أن يُريح إبِلَه في موضع، مع مخالفة الرومي لذلك وإصراره على طلبه، وقال له بعد أن جَدَّ في السير إلى غير ذلك الموضع: «أيها الأحمق!! إن لم تُشفق علينا، فهلَّا رحِمتَ إبلك؟ فما كان ذلك الموضع مرعًى لها، وستكون هذه الليلة محَطَّ رحال عسكر المُغْل الذين سيجعلون عالي تلك النواحي سافلها!!» وأخبر الراوي أن ذلك الموضع كان موضع استراحة لجيش المُغْل الذين اجتاحوا حلب.

ويؤكد لك أن الجلال الرومي كان في حلب قُبيل اجتياحها هذه الروية التي «أهداها» الأفلاكيُّ بتَقْيِيدها في كتابه للتاريخ عبرة! فاقرأها، واحمد اللّٰه تعالى أن جَعل في أهل البدع مَن ينقل فضائح متبوعه على سبيل

المناقب، وهو لا يشعر، فهذا الأفلاكيُّ ضَريب ابن السرَّاج الدمشقي، لكنه نسخة بالفارسية!

ولكن قبل أن أنقل لك الرواية لا أجد مندوحة عن إيراد سؤال يرِد على ذهن الباحث، وهو: أجاء الخفير جلال الدين الرومي إلى الشام باستدعاء من المغول لاستلام فرَمَان - مرسوم - تعيينه شيخَ شيوخ الأناضول ولبسه خِلْعتها مِنْ يَدِ هولاكو؟

قال الراوي: «حكى خادمُ «مولانا» كمالُ الدين التبريزي قال: كنت في حلب مع مولانا - مكثنا فيها بضعة أيام- فذهبت يومًا إلى بقَّال في السوق لأشتري شيئًا، فإذا بالبقال يشتمني[1]، فحَزِنتُ، ورجعتُ، وأخبرت مولانا عن سوء معاملة أهل حلب للغرباء، فتكدَّرت نفْس مولانا، وحنق على أهل حلب، ثم قال: يجب أن نترك هذه البلدة لأن جيش المغول في الطريق إليها، فما لبثنا أن تجهَّزنا، وخرجنا منها قاصدين إلى دمشق، وإذا الخبر يبلغنا مِن خلفنا: قد دخَلَت عساكر المُغْل إلى حلب. (قال الراوي): وقطَّع المُغْلُ ذلك البقَّال الحلبيَّ قطعةً قطعةً!».

قال أبو الفضل القونوي: للمرء أن يسأل: ماذا يفعل إنسانُ ذلك الزمان، وقد بلغته أفاعيل جنود المغْل بالبلاد والعباد، حين يسمع أن عساكرهم يتَّجهون جنوبًا إلى دمشق إلا أن يدفعه الخوف على حياته إلى البِعاد من فَوْره من طريقهم ومن مقصدهم وذلك بالرجوع لبلده؟ فإذْ لَمْ يفعل، فحُكْمُ العقل أنه كان في مأمن منهم، إمَّا بكونه كان أحد «أعضاء» الهيئة الرَّسمِيَّة التي خرجت مع السلطانَيْن: عزِّ الدين كايكاوس، وأخيه ركن الدين،

---

(١) لا يُدْرى ما السبب أو الأسباب التي أهاجت البقال الحلبي كي يسبَّ «زبونًا» يريد الشراء.

وأمرائهما، للإنضمام لهولاكو انصياعًا لأمره لهما بأن يكونا معه[١]، وأنه خرج بأمرهم كالطليعة، أو فبإذن سابق، و« فَرَمان » كان يحمله، كغيره ممن ذكرتهم المصادر، فلذلك كان رَخِيَّ البال يَرْتحِل ارتحال الآمنين.

وعلى ذلك فليست إجابة سؤال من يسأل: مَن كان يخبر الجلال الرومي بتحرُّكات جيش هولاكو؟ بالأمر الصعب، فإنه يقال في جوابه: إنهم المُغْل أنفسهم، وأعوانهم من مريدي جلال الدين الرومي. ويكفي أن تعرف أنَّ باني قُبَّة قبره - فيما بعد- الأمير علم الدين قيصر الموْصلي[٢]، كانت له، ولنفَرٍ آخرين، دُورٌ في حلب حماها لهم المُغْل، براياتهم السوداء، وجميع مَن دخلها، يوم مذبحة حلب، وقد وُصِفت المحبة التي كانت بين علم الدين وبين الجلال الرومي بأنها محبة عظيمة، وهو ممن مدحه ابنُ الجلال المعروف بـ (سلطان ولد) في ديوانه[٣].

رعب اجتياح حلب:

عِيشَ هذا الرعب بعد كائنة بغداد بسنتين تقريبًا، قال النُّوَيري: « وأحاط التتار بحلب في ثاني صفر، وهجموا على البواشير في الثالث من الشهر، فقتل من المسلمين جماعة، أسد الدين بن الملك الزاهر، صلاح الدين.

---

(١) زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، لبيبرس الدوادار (ص٥٦، ٧١).

(٢) اغتاله أعداؤه سنة ٦٨٣هـ. قلت: ولبعض الشخصيات، في ذلك العصر، وسائل في الحصول على المعلومات قد تعجَّب منها أهل دهرهم، كما تعجب الصفدي من حصولها لابن الأكفاني (ت ٧٤٩ هـ) فقد قال فيه: « وأما أحوال الشرق ومتجددات التتار في بلادهم في أوقاتها فكأنها كانت القصَّاد تجيء إليه، والملطَّفات تتلى عليه، بحيث إنني كنت أسمع منه ما لم أطَّلع عليه في ديوان الإنشاء عند كاتب السِّر ». انظر: أعيان العصر (٢٢٨/٤).

(٣) مقدمة محقق كتاب المناقب الأفلاكية بالتركية، تحسين يازيجي (١٢٨/١).

واشتدت مضايقة التتار لحلب، وهجموا من عند حمَّام حمدان، وذلك في يوم الأحد تاسع صفر، وصعد إلى القلعة خلق كثير. وبذَل التتار السيف والنهب في أهل حلب إلى يوم الجمعة رابع عشر الشهر، فأمر (هولاكو) برفع السيف، ونودي بالأمان، فقتل منها في هذه المدة ما لا يحصى كثرة. وكان قد تجمَّع بها من أهل القُرى خلق كثير، وسُبي من النساء والذراريِّ زهاء مئة ألف، بِيعُوا في جزائر الفِرنج، وبلاد الأرمن، ولم يَسْلم ممن كان بحلب إلا من التجأ إلى أماكن كان مع أهلها فرَمانات من (هولاكو) منها: دار شهاب الدين بن عَمرون، ودار نجم الدين أخي مردكين، ودار البازيار، **ودار علم الدين قيصر الموصلي**، والخاناقاه التي فيها زين الدين الصوفي، وكنيسة اليهود. فقيل إن الذين سلموا في هذه الأماكن يزيدون على خمسين ألف إنسان !! ».

لماذا سار الرومي إلى دمشق ولم يرجِع إلى قونية ؟[1]

قال الأفلاكي: « نُقِل عن سلطان الخلفاء حسام الدين جلبي أنه قال: كنت مع « مولانا » في رحلة إلى دمشق، فما أنْ دخلنا مدرسة من مدارسها إلا وأخذ جمع من الفقهاء، فيما يليق بهم، مِن الطعن في شرف (بهاء ولد)[2] الطاهر، بقبيح الكلام، ويقولون: أيقال لبهاء ولد: سلطان العلماء ؟ أيناسبه هذا اللقب ؟ قد جعل القومَ مجانينه، يزعم أنه من المقربين إلى اللّه، فلذا كان يسمي نفسه « الإلهي » !! فكانوا على ذلك، يفيضون بحماسة في سيئ قولهم، فدخل (مولانا) بينهم ولم يتكلم بشيء. فلمَّا عرفه من بين ذلك الجمع أحدهم صمتوا جميعًا.

(١) تكتب في المصادر العربية والعثمانية: قونية، وقونيه، وقونيا، كونيا.

(٢) بهاء الدين هو والد الرومي، تنقَّل في البلاد حتى استوطن قونية، ومات بها سنة ٦٢٨هـ.

وحين خرجنا من المدرسة قال الذي قد عرفه للفقهاء:

- هذا الرجل ابنُ (بهاء ولد) !

فحَسَر الجميع عن رؤوسهم واعتذروا، وسلَّموا للفقراء، وأقاموا مأدبة كبيرة، وقال« مولانا » لهم: إنما مقصدنا إرضاؤكم هذا ما نريده دائمًا ! »[1]

قال أبو الفضل القونوي: في الاحتمال أن يكون السطر الأخير من الخبر من « عنديات » الأفلاكي، وأن يكون العكس هو ما وقع، وأنه لم يختلف مصير أولائك الفقهاء عن مصير بقال حلب !

والقول بأن تاريخ هذه الرحلة كان قبل وفاة صلاح الدين زركوب، عشيق الرومي الثاني، وذلك سنة ٦٥٧هـ، ممكن وارد، لكن احتمال وقوعها أيام خليفته حسام الدين جلبي، عشيقه الثالث، يبدو أكثر احتمالًا، فإنك إذا عرفت أن الحسام بدأ بكتابة أبيات المثنوي التي كان الجلال يُمليها عليه، بعد اصطفائه لخلافة الجلال، وعرفت - أيضًا - أن توقفًا طرأ على ذلك الإملاء المتعاقب استمرَّ مدة طويلة، أرجِّح أن سببه الأقوى هو قيام التُّركمان بثورات في مدن الأناضول، متزامنة، على نوَّاب المغول فيها، ومسير المغول إليهم حتى قُتل زعيمهم (أخي أوْرَن) في (قِرْشَهِر) سنة ٦٥٩هـ، وقيام المغول بتتبع فُلُولهم في الأناضول بجيش أرسلوه سنة ٦٦٠هـ، أمَرَوا قوَّاده بقتل كل مَن يرتابون بولائهم من التركمان[2]، وإذا عُلم أن استئناف كتابة المثنوي موزَّعة على السنوات الباقية من عُمُر الجلال، بعد تاريخ العَود، وهو سنة ٦٦٢هـ وهي سنوات شيخوخة، فيكون تاريخ هذه الرحلة بين سنة ٦٥٧هـ وسنة ٦٥٨هـ قبيل وقعة عين جالوت.

---

(١) مناقب العارفين، للأفلاكي (٦٦٣/١).

(٢) ذيل المرآة، لليونيني: (٢/ ١٦٢).

فيكون قد جاء دمشق ليقدِّم الولاء لهولاكو قبل أن تبلغ هذا الأخير مدائحه في الأمير (بايجو) يوم كان المطاع الأوحد في الأناضول، قبل واقعة بغداد، فهي رحلة من أجل البقاء، وتحرُّز من أن تكون عاقبة أمره خُسرًا !

وكان الرومي من الداعمين سياسيًا لتطلعات الأمير (بايجو) إلى الاستقلال بحكم الأناضول[١]، وقد عرف أنه كان يمهِّد له بالقول في (أحايين كثيرة): « بايجو وليّ، لكنه لا يعرف أنه ولي »[٢]، ولهذا كان هو وعشيقه التبريزي يغضبان ممن يعلن العداء للمغول في مجلسهما، أو يُحدِّث الناسَ بمظالمهم[٣].

بيْد أن « وليَّ » الروميِّ الأمير (بايجو) لم يتأخرْ في إظهار علامات الولاية الصوفية، بعد زمن قليل من « دعايات » الرومي له، عندما حَلَّتْ سنة (٦٥٦هـ)، وحاصر المشركون المغولُ بغداد، فكان (بايجو) ممن بَذَلَ السيفَ في شوارعها وبيوتها بضعة وثلاثين يومًا، ولن ينتفع أنصار الرومي بما نقله بعض المؤرخين غير المحققين كالنويري، وكالأمير بيبرس الدوادار، فقد نقلاه بصيغة التمريض « قِيلَ »، وذُكر أنه أسلم قبل موته[٤]، وكأنهم ما وَثِقُوا بناقليها، وهم إما صوفيةٌ، من هؤلاء المنحرفين، أو نَقَلَةُ أخبارٍ، من صنائع المُغْل، وأحْرِ بها أن تكون من صناعة جلال الدين الرومي نفسه، أومريديه بقونية، فقد تقدَّم أنَّ موقفه السياسيَّ كان إلى جانب

---

(١) زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، لبيبرس الدوادار (ص٤١).

(٢) مناقب العارفين، للأفلاكي، (٤٥٤/١).

(٣) المقالات، للشمس التبريزي، (٧٤/٢).

(٤) نهاية الأرب، للنويري (٣٨٤/٢٧). زبدة الفكرة، لبيبرس الدوادار (ص٤١).

الأمير (بايجو)، كما كان كانت مواقف رفاعيةِ ذاكَ العهد مع هولاكو[١]، ويؤكد هذا الفهمَ مصدرٌ رفاعي ذَكر أنهم كانوا يَرون أن هولاكو الوثني، أسْلَمَ حين رأى « كرامات » جماعة من الرِّفاعِيَّة بمدينة (مراغة)، دخلوا نارًا أجِّجَتْ أمامه، وشربوا النُّحاس المذاب بحضرته، وكان مقدَّمُهم وقتئذ شيخًا رفاعيًّا (قَلَنْدَرِيًّا) يُعرف بحاجي دَرْبَندي، واسمه: محمد بن محمد بن عبد اللَّه (ت٦٦٦هـ).[٢]

والحقُّ إنني، ومع مئات الأعوام التي مرَّت على موت هذه الشخصيات التي اجْتَرحَت تلك المظالم، لأجد في نفسي شيئًا أظنه يشبه ما كان في نفس الإمام سِبْط ابن العجميِّ (ت٨٨٤هـ)، دفعني كما دفعه لنَسْطُر بيتًا قاله ابن عَرْقَلَة الأعور (ت٥٦٧هـ)، بعد الكلام على إسلام (بايجو) المزعوم، وهو قوله:

فلا رَحِمَ الرحمنُ تُربَةَ قَبْرِهِ ولازالَ فيها مُنكَرٌ ونكيرُ[٣]

ومع ذلك، فإن كان في عِلم اللَّه أنه أسلم، فأمره إليه سبحانه وتعالى.

---

(١) حتى إنه لم يلتق بـ « الخفير » تاج الدين الرفاعي - الذي مرَّ ذِكره - حين جاء إلى قونية (كان ذلك قبل سنة٦٥٧هـ، لأن الرواية التي ذكرت خبر مجيئه ذكرت أيضًا شفاعة صلاح الدين زكوب عند الجلال في زوجته (كيرا خاتون)، لذهابها مع النسوة لمشاهدة الرفاعية في نُزُل ضيافتهم، وقد مات زركوب سنة ٦٥٧هـ)، مع احتفاء أهل قونية بضيفهم الرفاعي، أمراءَ، وصوفية، وأهل فُتوَّة، وخاصة وعامة، للمكانة التي ارتقى إليها عند (هولاكو)، وبدا النَفَس العدائيُّ جليًّا في خبر دخول شيخ الرفاعية إلى قونية، ولعل ذلك ممن نقلها للأفلاكي. انظر: مناقب العارفين، للأفلاكي، (٢/الحكاية ١٦من الفصل الخامس).

(٢) روضة الأعيان، لمحمد الموصلي (الورقة ٥٢٦،٥٢٨)، ونقلها الوَتري في: روضة الأعيان ص٦٣.

(٣) كنوز الذهب، لسِبْط ابن العجمي (١/٦١٤).

وقد قَتَل هولاكو - الذي تكشَّفَت له أمور - مُنافِسَهُ (بايجو) عقب سقوط بغداد[١].

فإن كان هولاكو قد رضي عن الرومي قبل رحلة الأخير إلى حلب كانت قَدْمَتُه تلك للحصول على جائزة كجائزة القاضيَيْن: محيي الدين بن الزكي، وصدر الدين بن سَنيِّ الدولة، وهما ممن خَدَم (هولاكو) في الشام. وفي مصدر عربي ذِكْرُ: توَجُّه محيي الدين وأولاده وأخوه لأمه شهاب الدين، وابن سَني الدولة إلى هولاكو، فأدركوه قبل أن يقطع الفرات، ثم عادوا إلى بعلبك، ودخل محيي الدين في محفَّة، وهو في تجمُّل عظيم، ومعه من الحشم والغلمان ما لا مزيد عليه، وصلى الجمعة في شبَّاك (الأمينية)، وأحضر منبرًا قبالة الشُّباك، فقُرِئ تقليدُه، وهو تقليدٌ - كما قال المصدر - عظيم جدًا، قد بالغوا في تفخيمه، بحيث لا يخاطَب إلا بمولانا، وفيه أن يشارِك النوَّابَ في الأمور، وعليه الخلعة: فَرَجِيَّة سوداء، منسوجة بالذهب، قيل إنها خلعة الخليفة على صاحب حلب، أُخِذَتْ من حلب، وعلى رأسه بقيار صوف بلا طَيْلسان.

وفيه أيضًا: « ثم شرَع ابن الزكي في جَرِّ الأشياء إليه وإلى أولاده مع عدم الأهلية، فأضاف إلى نفسه وأقاربه (العذراوية)، و(الناصرية)، و(الفلكية)، و(الركنية)، و(القيمرية)، و(الكلاسة)، وانتزع **(الصالحية)** وسَلَّمها إلى **العماد بن محيي الدين بن العربي**، وانتزع **(الأمينية)** من عَلَم الدين القاسم وسلَّمها إلى ولده **عيسى**، وانتزع **(الشومانية)** من الفخر النَّقْشواني، وسلَّمها إلى **الكمال بن النجار**، وانتزع **(الربوة)** من محمد اليمني، وسلمها إلى الشهاب **محمود بن محمد بن عبد اللَّه بن زين القضاة**، وولى ابنه **عيسى**

---

(١) زبدة الفكرة، لبيبرس المنصوري (ص ٤١).

مشيخة الشيوخ. وكان مع **الشهاب** أخيه لأمه تدريس (الرواحية)، و(الشامية) البرانية »[١].

قال أبو الفضل القونوي: وكذلك فعل وزيرُ المغول، ومريدُ الجلال الرومي: تاجُ الدين المعتزُّ (ت ٦٧٦هـ) مع أحد المقرَّبين من الرومي ومن المغول، فقد عيَّنه شيخًا لمدرسة في قونية اسمها: (دار الذاكرين)[٢].

قال النويري: « ووصل إليه أيضًا (يعني إلى هولاكو) من دمشق القاضي محيي الدين بن الزكي، فأقبل عليه هولاكو وخلع عليه، وولَّاه قضاء الشام، **ولما عاد ابن الزكي إلى دمشق لبس خلعة هولاكو، فكانت مذهبة، وجمَع الفقهاء وغيرهم من أكابر دمشق، وقرأ عليهم تقليد هولاكو !** »[٣].

ولا يُشك أن التعارف بين ابن الزكي وأسياده المغول كان سابقًا لمكرمة هولاكو تلك، فهذا هو المشاهَد في مجريات الأمور عادة، وقريب الاحتمال جدًا أن يكون ابن الزكي في ذلك مثل قاضي مدينة (سِيواس)، الذي قيَّد مؤرخ قريبٌ زمنًا من الحادثة التي يؤرخ لها عن هذه المدينة، قيَّد مشْهدًا يدلُّ على سابق معرفة للقاضي مع المغل لم تذكر في الرواية، وهي أنه حين أقبلت جحافلهم إلى (سيواس)، تحت إمرة (بايجو)، خرج القاضي لاستقباله، فما دنا منه حتَّى عرفه (بايجو) وعظَّمه، وناوله (فَرَمانًا)، فأخذه القاضي وقبَّله ووضعه على رأسه !![٤]، وذكر المؤرخ فؤاد الصياد: أن

---

(١) ذيل مرآة الزمان، لليونيني: (١/١٣٥-١٣٦).

(٢) مناقب العارفين، للأفلاكي (١/٤٠٢).

(٣) نهاية الأرب، للنويري: (٢٧ / ٢٨٩).

(٤) الأوامر العلائية، لمحمد بن علي، المعروف بابن بي بي، الترجمة التركية (٢/٧٢، ٧٣).

المغول كانوا يكافئون أودّاءهم الذين خدموهم بلوحات من الذهب أو الفضة أو الخشب، شبيهة بالميداليات في العصر الحديث[١].

وكذلك كان كبيرُ القلندريةِ، الشمسُ التبريزي يُقابَلُ بتعظيمِ المغول وعملائهم، فقد روى أحمد الأفلاكي أنه بَيْنا كان التبريزي في طريق، إذْ بأمير يطلع عليه، وفُرسانه حوله، فلما تلاقت أعينهما نزل الأمير عن فرسه، وخَنَع له وانحنى، ثُمَّ وَلَّى. وفي الخبر أن التبريزيَّ شهد لهذا الأمير أنه من الأولياء ![٢].

و الشمس التبريزي هذا هو المؤسِّس للوثاق المؤكَّد بين الرومي والمغول، وليس من الصعب فَهْمُ العلاقة القديمة للتبريزي معهم، وهو الذي دخل الأناضول مرورًا بأذْرِنجان وأرضروم، وتِلْكُم هي عين الطريق التي سلكها المغْل في استيلائهم عليها، وقد قيَّد مصدرٌ بالفارسية توافرَ زُمَرٍ من القلندرية، ضمن جيش المُغْل الذي حاصر مدينة (قيصرية)، فليس يَبْعدُ ما قاله مؤرخ معاصر من أن المُغْل قد أرسلوا التبريزي إلى قونية، وهم بعدُ هناك، وذكر أن مما يقوِّي هذا الاحتمال كونه جاءها قَبْلهم بسنتين[٣]، فمن هذا التبريزي ؟

سلطان الخفراء شمس الدين التِّبْرِيزي!

اسمه محمد بن علي بن ملك داذ، كان في وقت من الأوقات معلم صبيان في أرْضِرُوم[٤]، ويُفهم من كلامه المنقول عنه أن قلبَه كان منزوع

---

(١) المغول في التاريخ، فؤاد الصياد (ص ٣٥٨).
(٢) مناقب العارفين. أحمد الأفلاكي، (٢/٢٧١).
(٣) كتاب: أخي أورن وتأسيس الفتوة الأخوية، لميكائيل بايرم (ص ١٩٧).
(٤) مناقب العارفين. أحمد الأفلاكي (٢/٢٧٥).

الرحمة على صبيان المسلمين في الكُتّاب، الذي كان يقرئ لهم فيه القرآن، فكان يضربهم ضربًا بعيدًا عن التأديب، فقد كان يضع الفَلَق في قدمَي الطفل من أولئك، ثم يضربه حتى تدميان وتُنزع جلدة باطنهما[١]. وكانت فيه من أخلاق القلندرية الذميمة خصال عدَّة أهونها التطفُّل، فربما تقحَّم بيتًا عنوة؛ لسماع موسيقى فيه، مما أحفظ صاحب الدار عليه، فلما طلبوه للعقاب ولى هاربًا[٢]، وكان متقنًا لصناعة الأكاذيب، فمن ذلك قوله عن نفسه: «قد كنت منذ صغري في حالٍ من إلهام اللَّه ليَ!»[٣].

لقِيَ الأوحدَ الكِرْمانيَّ ببغداد (ت ٦٣٥هـ)، فسأله الكرماني الصُّحبة، ولك أن تفهم من طِلْبَتِه هذه أن صورة التبريزي كانت تصلُح عند الأوحد ليتخذها شاهدًا بمصطلح الصوفية! فاشترط عليه التبريزي كي يوافق على طلبه شُرْب المسكر معه جهارًا في سوق بغداد، أو يجلبها له أو أن يكون بجنبه حين يشربها! فلما تعذَّر الكرماني بعدم قدرته على ذلك كلِّه انتهره وطرده![٤].

جاء إلى قونية سنة ٦٤٢هـ، وهو التاريخ الذي انفَلَّ فيه جيشُ خليل بن بدر الكردي الرفاعي[٥]، وأتباعه من المغول والقلندرية، وتشتَّتوا في البلدان، بعد هزيمتهم على أيدي المسلمين. وقد اختلف في عمره، وقال المؤرخ التركي، د. أحمد ياشار أوجاق: إن عُمُر التبريزي حين لقِي الجلال

---

(١) المقالات، للشمس التبريزي (٢/٢٥٩، ٣٥٦، ١٤٦، ١٤٨).

(٢) مناقب العارفين. أحمد الأفلاكي (٢/٢٠٦).

(٣) المقالات، للشمس التبريزي (١/٢٩١).

(٤) مناقب العارفين. أحمد الأفلاكي (٢/١٩١، ١٩٢).

(٥) الحوادث الجامعة والتجارب النافعة، المنسوب لابن الفوطي (ص٢٢٩-٢٣٠).

بقونية، كان الخامسة والأربعين[١].

ويرى المؤرخ التركي المعاصر ميكائيل بايرام - أحد من سَبَرَ أغوار تاريخ المولوية - أنه من اللافِت لانتباه الباحث في أمر الشمس التبريزي سلوكه الطريق التي سلكها المغول يومئذ، في اكتساحهم مدن الأناضول، وعلى هذا ؛ فالقولُ بأنه جاسوس لهم، أرسلوه لعاصمة السلاجقة لغرض يندرج في الإعداد للعمل الحربي، أمرٌ يتَّسِق ومعطيات التاريخ. ويَرى في المحتمل - أيضًا- أن يكون الشمسُ أحدَ مريدي جمال الدين الساوي (ت٦٣٠هـ) الأربعة، الذين سمَّاهم صاحب كتاب (فسطاط العدالة في قواعد السلطنة) وعَدَّ منهم: (الشمس الكردي)، وأن مَن وصَفهم المؤرخ العثماني (واحدي) في كتابه بـ(الشمسيين) مخبرًا عنهم أنهم يقولون: إنهم من أتباع الشمس التبريزي، دليل على توافر مريديه قبل ذلك التاريخ في الأناضول[٢].

لم يرحِّب فقهاء قونية، وبعض صوفيَّتها بالتبريزي إذ حلَّ بها، فكان من علامات ذلك: أنهم تعمدوا سؤاله عن حُرمة الحشيشة، يعرِّضون به وبالقلندرية مُدمنِيها - فما كان له من سبيل يومئذ إلا أن يوافقهم على الحرمة[٣]، بل كان يدافع عن نفسه في المجالس قائلاً: «إن من أصدقائنا (يعني القلندرية) من يَنْتَشِي بالحشيشة، وإن ذلك لخيال شيطاني!»[٤]،

---

(١) القلندرية، أحمد يشار أوجاق (ص ٧٢).

(٢) حدثني بذلك غير مرة بقونية، التي يدرس في جامعتها التاريخ. وانظر ما قاله كولبينارلي عن الشمسيين في كتابه: المولوية بعد مولانا (ص ٢٠٧-٢٠٩).

(٣) مناقب العارفين. أحمد الأفلاكي (٢/٢٠٨).

(٤) المقالات، للشمس التبريزي (١/٤٠).

وذكر في موضع آخر، عودة أحد جلسائه إلى أكل المخدِّر[(١)].

كان التبريزي جَهميًا - كما يُفهم من حوار له مع فقيه -[(٢)] ومبتدعًا، وفوق ذلك حلوليًا، يرى أن اللَّه تعالى، قد أحبَّه إلى حدٍّ أن لو شاء التبريزي أن يأتيه في أيِّ صورة لجاءه فيها، وأنه جاءه ذات مرة على شكل مَن زُوِّجها، واسمها (كيمياء)، وتكذِّبَ أفِيكتَه هذه لعشيقه الجلال الرومي، حين دخل عليه ورأى التبريزي وكيمياء في حال من المداعبة الزوجية ![(٣)].

ففي أمثال التبريزي قال شيخ الإسلام ابن تيمية، وكأنه يحكي حال هذا الخفير: « ... فهؤلاء الضُّلال الكفَّار، الذي يزعم أحدُهم أنه يرى ربَّه بعينيه، وربما زعم أنه جالَسه وحادثه أو ضاجعه ! وربما يُعيِّن أحدهم آدميًّا ؛ إما شخصًا أو صبيًّا، أو غير ذلك، ويزعم أنه كَلَّمَهم، يُستتابون، فإن تابوا وإلا ضُرِبتْ أعناقهم، وكانوا كفارًا ؛ إذ هم أكفر من اليهود والنصارى، الذين قالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧]، فإن المسيح رسول كريم، وجيه عند اللَّه في الدنيا والآخرة، ومن المقربين ...»[(٤)].

و سمع التبريزي مريدًا له يعلنها أمام الناس قائلاً: « أشهد أن لا إله إلا اللَّه، وأشهد أن شمس الدين رسول اللَّه »، فحماه من الناس الثائرين، ثم علَّمه كيف يبقي على عقيدته فيه، مع دفع الضَّرَر عنه من قبل المسلمين، فقال: « اسمي أنا محمد، فكان عليك أن تقول: محمد رسول اللَّه، لا يعرف الناس دينارًا غير مختوم ! »[(٥)].

---

(١) المقالات، المصدر السابق (١/١٨٨).

(٢) المقالات، (٢/١٤٨، ١٤٩)، مناقب العارفين (٢/٢٥٥).

(٣) مناقب العارفين (٢/٢١٤).

(٤) الفتاوى، لابن تيمية (٣/٣٩٣، ٣٩٤).

(٥) المقالات، للتبريزي (٢/٢٠٧).

وكان الشمسُ على ذلك إباحيًّا، حتى اضطر عشيقه الجلالُ إلى الدفاع عنه بحضرة الفقهاء، دفاعًا زاد به الطينَ بِلَّة[١]، وكان ماجن الكلام جدًّا في مجالس وعظه، سيِّئ المعشَر مع الناس[٢].

فكان أن ضجَّ أهل الشريعة في قونية، وطلاب العلم، وبينهم طلاب الجلال، من اهتمام الجلال الرومي بالتبريزي، هذا الاهتمام الزائد، بل المبالغ فيه ؛ إذْ لا يسوغ في شرع ولا عقل أن يُبديَ الجلالُ هذا التعلُّق بقلندري من القلندرية، وهُمْ مَن هُم، وهُو مَن هو في مكانته الاجتماعية والعلمية لديهم.

فكان أن بدأت القالة فيهما، وشَرَّق الكلامُ عليهما وغرَّب، والجلالُ والشمسُ قابعان في غرفة واحدة، لا يخرجان منها - كما في المصادر - أسابيع طويلة، لا يَحْفلان بما انتشر بين الناس من حديثٍ عنهما، ذاك الحديث الذي وصَفَه الأفلاكيُّ بقوله: «وجعلوا يتناقلون أنواعًا من الهذيانات عنهما، تملأ الفم، فلا يستطاع النطق بها !»[٣]

وتقاذف الطرفان التُّهَم الأخلاقية، أعني الجلالَ الروميَّ وشيعته من جهة، وخصومه من الفقهاء والصوفية من جهة أخرى، وأمدَّنا بخبر ذلك كلِّه الأفلاكي.

فمن ذلك ؛ أن التبريزي طلب من عشيقه أن يهبه محبوبًا جميلاً يخدُمه،

---

(١) المقالات (٢/٢١٦).

(٢) المقالات (٢/٢١٧-٢١٨).

قلت: وقد آثر مترجم مقالاته إلى التركية، أن يخفي أسطرًا من كلماته، لبلوغه فيها قاع الخنا. انظر: المقالات (١/٣٠١).

(٣) المناقب، للأفلاكي (٢/١٩٦).

فما كان من الروميِّ إلا أن قدم له زوجته أم ولده، واسمها (كيرا خاتون)، ولكنه رفضها، وطلب بدلاً عنها غلامًا جميلاً، فأرضاه الروميُّ، بأن وهبَه ابنه الغلام اليَفَع (سلطان ولد)، الذي وُصِف بلسان المصدر بالفارسية بـ (يوسف يوسفان)![١].

فانتقد أهل قونية صنيع الرومي هذا؛ إذ علموا بمذهب القلندرية في الغلمان الحسان، ولم يزل الكلام عليهما بسببه، حتى ألجأهما الأمر إلى حملة مضادة، فكان الجلال الرومي يُبرِّئ ابنه (سلطان ولد) قائلاً: «ابني بهاء الدين، لا يأكل الحشيشة، ولا يتعاطى فعل قوم لوط؛ لأن هذين الشيئين مذمومان جدًّا عند اللَّه الكريم»[٢]، وألقى بالتُّهمة عَيْنها على كبير مروِّجها بين أهل قونية، زعيم أهل الفُتوَّة في الأناضول: ناصر الدين محمود الخويِّي، المعروف بـ (أخي أوْرَن) (ت ٦٥٩هـ)، وهو صوفي، وصفته المصادر بالعلم والمعرفة، وكان معاديًا للمغول، ولأذنابهم وخفرائهم، فاتهمه الروميُّ، بعين التهمة التي رُمِي ابنُه (سلطان ولد) بها من قبل خصومه[٣] حتى هجاه بها في مثنويه دون تصريح باسمه[٤]، ولا يزال أناس إلى اليوم يتناقلون تهمة أهل الفتوة للرومي والتبريزي بما تقدم[٥]. وأما

---

(١) المصدر السابق (٢/١٩٧).

(٢) المصدر السابق (٢/٢٠٩).

(٣) الأفلاكي، المصدر السابق (١/٣٧٠).

(٤) جلال الدين الرومي، المثنوي (٢/ رقم البيت ٣١٥٥). وللمؤرخ المعاصر دراسات متأنية حول شخصية الرومي والخويي، وغيرهما من أعلام الأناضول.

(٥) مولانا جلال الدين، لعبد الباقي كولبينارلي، (ص ٢٠٩)، ومختارات مما كتب عن مولانا، وداد كنج (ص ١٥٠)، وانظر: الكتاب الأسود، لبرهان باموق (ص ٣٠٩-٣٢٦).

الشمس التبريزي ؛ فنفى عن نفسه أن يكون لوطيًّا، كالذي يقول: أنا وإن كنت قلندريًا، فلست من جملتهم في هذه الموبِقَة ![١].

أمام هذه المضايقة الشديدة من أهل قونية، وعَدِّهم القلندريَّ الطارئ عليهم رأس مشكلهم، خرج التبريزي فارًّا من قونية، وانسَلَّ انسلالاً عنها سنة ٦٤٣هـ، فلما أحسَّ الرومي فقده جُنَّ جنونه - هذا التعبير من المصدر- لبعاده عنه، فلما بلغه أنه رحل إلى دمشق، بعث إليه غزلياته - كذا تعبيرهم - يستعطفه في أن يرجع إليه، ثم ما كان منه، إلا أن جعل بعضًا من دنانير الذهب هدية إليه، ودفع الكتاب والدنانير إلى ابنه (سلطان ولد)، ثم أرسلها- أعني الدنانير وابنه - ليُقْبِلا به إلى قونية !

كان صنيع الرومي هذا مسبوقًا بمعرفته بما يؤثر إيجابًا في مزاج عشيقه القلندري، أما ولَعه بالجمال الذكوري فقد مرَّ بك آنفًا، وأما الأخرى فقد سمعه بقونية، وهو يقول: «يقْدِر المريدون أن يَصِلُوا إلينا بأحد ثلاثة أشياء ...»، وذكر أن أولها المال[٢]، وأوضح ذلك في مقالاته[٣].

وقد لفَتَ مبدأُ الشِّحاذةِ القلندريِّ هذا، انتباهَ بعض أصدقاء الجلال الرومي، فصارحوه قائلين: «إن مولانا قد رفع يده عن الدنيا، أما الشمس التبريزي فلم يتركها»[٤]، وكان مَن أحَبَّ الاستفاضة منه - من كلمة الفيض الاصطلاحية - قدم آلاف الدراهم ثمن ذلك[٥].

---

(١) المقالات، شمس الدين التبريزي (٢/٥٦).

(٢) مناقب العارفين، للأفلاكي (٢/٢٠٢).

(٣) المقالات، الشمس التبريزي (١/٥١٨).

(٤) مناقب العارفين (١/٥١٨).

(٥) المصدر السابق (٢/٣٧٠، ٣٧١).

فلما وصل (سلطان ولد) دمشق، لقي التبريزي في خانٍ بالصالحية، ورآه وهو يلاعب غلامًا من الفرنجة جميلاً - كذا وصَف المصدر - يُلاعبه بالنرد، وبلغ مِن رفْع التكلُّف بينهما أنْ إذا غلبه الغلامُ الفرنجي في اللعب صَفع الشمسَ صفعةً، وإذا كان العكس فالعكس[١].

ولا يبعُد أن يكون الغلام من الحريرية، فتعرُّفه عليهم مذكور عند الأفلاكي، وممدوحُه[٢] شيخُ الحريرية عليًّا الحريري، كان قدوتَه، وقد سمعَه وهو يهذر مع مريديه في الشام[٣].

فكان أن رجع التبريزي إلى قونية، وعاد إلى سيرته الأولى مع الرومي، أو كما عبَّر الأفلاكيُّ، وهو يخبر عن الرومي: « ... إلا وغَرِق في عشق التبريزي، وعاد هيجانه وثورانه وعدم استقراره أزيد من ذي قبل بمئات المرَّات ! »[٤].

ورجع نكير الفقهاء كما كان أو أشدَّ، وعِيلَ صبرُ الأسوياء من آل بيت الجلال، فانضمَّ إلى الناقمين من أهل الشريعة ابن الرومي الآخَر، واسمه: علاء الدين، وكان مدرِّسًا شرعيًا، وصفه أبوه الرومي في رسائله إليه، لما فارق الابنُ قونية بـ (مفخرة المدرِّسِين)[٥]، فكان مِن أشدِّ مبغضي التبريزي، وبعض من كتب عن الجلال وذويه، من كتَّاب اليوم، أراد أن يحطَّ من قدر جوهر ذاك البغض بحَصْر علَّته في أن العلاء إنما أبغضَ شمسًا

---

(١) المصدر السابق (٢/٢٧٧-٢٧٩).

(٢) المصدر السابق (٢/٢١٧، ٢٥٩).

(٣) السابق نفسه.

(٤) المصدر السابق (٢/٢٨٠).

(٥) رسائل الجلال الرومي (ص ١٦-١٧، ١٠١، ١٠٢).

التبريزيَّ لأنه تزوج حبيبته كيمياء، وهذا وإن كان سببًا فليس بأوْحَد.

ويُفهم أن الجلال الرومي قد ضحَّى بحبِّ العلاء حين زوج معشوقة ابنه سواه، فقد زوج ربيبته كيمياء هذه - مستعجلاً فيما يظهر - لأنه ورد في أخباره أنه فعل ذلك رجاء أن تسكت ثائرة أهل الشريعة بقونية، ولكن خطته لم تفلح في تخفيف استنكارهم على التبريزي، ولعله - مع ما كانوا يبغضونه لأجله - قد تكَشَّف لهم أنه كان عينًا للمغول، فطفح بهم الكيل، وما كانوا بقادرين على التغيير بواسطة السُّلطة السلجوقية، التي خضعت للمغول، فكان أن تعاهدوا على اغتيال هذا الطارئ عليهم، المُبْغَض لأقواله وأفعالهم إليهم.

وأبْرَموا أمرَهم سنة ٦٤٥هـ، وتحيَّن سبعةُ أشداء من أهل الفُتوَّة، بينهم علاء الدين جلبي بن الرومي الفرصة، وجاؤوا خلوة الرومي والتبريزي، وكَمنوا في موضعٍ ثَمَّ، وأشار أحدُهم إلى الشمس التبريزي إشارةً أن اخرُج (لم يُنْقَل لنا هيئة الإشارة، وكأن المشير أوْمَأ له أنه وحْدَه)، وليس يجهل المعنِيُّ بالاغتيال أنه ببلدة جُلُّ أهلها ما أحبوه ساعة من نهار، ومع هذا خرَج لتلك الإشارة مجهولة الهيئة، فما أن جاء حيث كُمِنَ له إلا وانهالتْ عليه أيدي سبعة فدائيين من أهل قونية، انهالت طعنًا بالخناجر، فقتلوه[1].

ويُفهم أن إرسال المغول لجواسيسهم وخفرهم إلى البلاد التي هم مُقْبلون على غزوها كان أمرًا متَّبعًا، قد عرفه الخاصة من العلماء يومئذ، وإنَّ مما ينبغي أن يفسَّر به الباحث سبب بغض كثير من علماء بلاد الأناضول لهذه الزُّمَر من الصوفية، أنهم وقفوا على خياناتهم، فهم شديدو البغض لهم،

---

(١) المصدر السابق (٢/٢٧٧-٢٧٩).

وكثيرو التحذير من قربهم، انظر شهادةَ ابن السَّرَّاج هذه، وهو يحكي قصة شيخ صوفي: «... حضر يومًا عند طائفة من التركمان، اتِّفاقًا، وكان القومُ أبغض الناس للفقراء، لا يكاد واحدٌ منهم يَرى فقيرًا، فضلًا عن شيء آخر، وسببه أنَّ الدانِشمَنْدِيَّة - وهم فقهاء التركمان- أكثرهم، أو كلُّهم، يبغضون الفقراء إلى الغاية، وليس لهم فيهم اعتقاد خير، وقد تتابعوا في ذلك، وزادوا عن الحدِّ إلى الغاية، بحيث إنَّ الكفَرة لا يَصِلُون إلى حالهم، بحيث إني رأيتُ جماعةً منهم يبالغون حتَّى يقولوا: مَنْ أعطى أحد الفقراء كِسْرة خُبزٍ، فقد كفر!»[١].

فقد عرفوا أنهم «طابور خامس» للمغول، وأن التصَدُّق عليهم إعانة للمغول من جهة، ولخفرائهم في الحصول على المحرمات التي يأتونها، ولذلك أفتى الإمام زين الدين الفارقي وشيخ الإسلام ابن تيمية بعدم جواز إعطائهم الزكاة[٢]، ومن هنا قال ابن تيمية أيضًا: «ولما جاء قازان، وقد أسلم دمشق، انكشفت أمور أخرى؛ فظهر أن اليونسية كانوا قد ارتدوا، وصاروا كفارًا مع الكفار»[٣].

ثم ذكر أن شيخًا من شيوخ اليونسية حضر عنده[٤]، واعترف بالردة عن الإسلام، وحدثه ابن تيمية بمفهومهم المنحرف للقدر، وما ترتب على ذلك من عمالتهم للمغول، وكان فيما قال للشيخ اليونسي: «هَبْ أن المسلمين -

---

(١) (تفاح الأرواح)، لابن السراج، المنقول الاثنان والعشرون والمئتان.

(٢) نشرتهما في رسالة مستقلة سنة ١٤٢٣هـ.

(٣) الفتاوى، ابن تيمية (١٣/٢١٦، ٢١٧).

(٤) أرجِّح أن يكون هذا اليونسي التائب: سيف الدين الرجيحي (ت ٧٠٦هـ) حفيد من يُنسبون إليه. إذ هو الذي تذكره المصادر الموثوق بها بكلمات مديح، كابن كثير في تاريخه (١٤/٤٦)، وابن حجر في درره (٢/١٠٧).

كأهل بغداد - كانوا قد عصَوْا، وكان في بغداد بضع عشرة بغيًّا، فجيش الكفار المغول كانوا شرًّا من هؤلاء، فإن هؤلاء كنَّ يزْنِين اختيارًا، فأخذ أولئك المشركون عشرات الألوف من حرائر المسلمين وسَرارِيِّهم بغير اختيار، ورَدُّوهم عن الإسلام إلى الكفر، وأظهروا الشرك وعبادة الأصنام، ودين النصارى، حتى بقي المسلمون مقهورين مع المشركين وأهل الكتاب، مع تضاعيف ما كان يُفعل من المعاصي، فهل يأمر محمد ﷺ بهذا ويرضى عنه؟ ! »، فقال له اليونسي: « لا واللَّه ! ». ثم أخبر ابن تيمية عن ردة من ارتدَّ من شيوخ اليونسية وغيرهم عن الإسلام[1].

يقول ابن تَيْمِيَّة في جنس هؤلاء على لسانهم:

واللَّه ما فَقْرُنا اختيار وإنما فقرنا اضطرار
جماعة كلُّنا كُسالى وأكلنا ما له عِيار
يُسْمَع منَّا إذا اجتمعنا حقيقةٌ كلها فشار[2]

ومن قرأ تصوير الذهبي وغيره من المؤرخين لحال الدماشقة حين جاء حفيد هولاكو غازان خان لبلاد الشام سنة ٦٩٩هـ، وعرف حال هذه الزمر الصوفية، لمَحَ آثار الشائعات التي كانوا ينشرونها بين الناس لصالح المغول، وبخاصة في قول الحافظ: « أما نحن، فشرَعَ الناسُ يتحدثون في أمر التتار، ويذكرون عنهم خيرًا، وأن مِلِكهم مسلم، وأن جيشَه لم يتبعوا المنهزمين، وبعد تمام الوَقعة لم يقتلوا أحداً، وأن مَن وجدوه أخذوا فَرَسه وسِلاحه وأطلقوه. وكثرت الحكايات من هذا النَّمَط، حتى قال إنسان كبير: اسكت، هؤلاء خيرٌ من عسكرنا. وانخدع الناس »، حتى قال: « وأصبح

---

(١) الفتاوى، لابن تيمية (٢١٧/١٣).

(٢) الوافي، للصفدي (٣٠/٧)، والفشار: كلمة بالدارجة تعني الهذيان.

الناس يوم الأحد ثاني ربيع الآخر في خَمْدة وحيرة، منهم الهارب بأولاده إلى مصر، ومنهم الطامع في عدل التتار، وأنهم مشَى بهم الحالُ نَوْبَةَ هولاكو، وهُمْ وملِكهم كفَّار، فكيف وقد أسلموا؟ »[١]

إكرام (بايجو) للجلال الرومي!

يُلحظ في رواية « أفلاكية » عبارة ذات دلالة في شأن علاقة الرومي بالأمير (بايجو)، قال الأفلاكي: « ... فاجتمع الملأ من أهل قونية إلى السلطان ثُمَّ أقبلوا بأجمعهم إلى مولانا وشكروه واعتذروا إليه، وجمعوا من الأموال والنفائس ما لا يعدُّ، وأعطوها لـ (بايجو) ..»[٢]، فماذا تعني كلمة: (واعتذروا إليه؟) الجواب المتبادر إلى الذِّهن: ما استَقبَل به القونويون عشيقه الشمس التبريزي، من ازدرائهم له كلما التقَوْا به، ثم قَتْل جَمْع منهم - فيهم ابن الرومي علاء الدين- للتبريزي، أو من عدم التفاتهم إليه، لتنفير أهل العلم بالشريعة لهم من بدع التبريزي، ويَرِدُ أنهم حمَّلوه الاعتذار للمغول عن قتل خفيرهم المعظَّم التبريزي. ويُلحَظ - أيضًا- أنها رواية متوافقة مع رواية النويري. وتأمَّلوا كلمة الجلال التي قالها لأهل قونية: « لن يَنْعَم أهل قونية بالعيش مطمئنين ما دام في أهلها من ينكر على آل بيتي ونسلي! »[٣]، كيف تنطوي على تهديدهم بأسياده المغول، إذا أعلنوا بنكيرهم عليه أو على ذريته من بعده!

هل « الخطيب » المذكور في « مصدر عربي » هو الجلال الرومي؟

أمَّا المصدر فكتاب (زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة)، للأمير ركن الدين

(١) تاريخ الإسلام، للذهبي (١٥/٧٠٤-٧٠٥).
(٢) مناقب العارفين، للأفلاكي، (١/٤٥٤).
(٣) مناقب العارفين، للأفلاكي، (١/٤٥٦).

بيبرس المنصوري (ت٧٢٥هـ) الذي أعانه على تأليفه كاتب له، فقد نقل فيها حكاية خطيب لم يسمِّه، أنقذ أهل قونية من أن تسفك دمائهم، حين قصد إليها (بايجو) بجيش المغل، بعد أن هزم عسكر السلاجقة، وبعد أن هرب سلطانهم من عاصمة ملكه سنة ٦٥٥هـ، فقال: «وأغلق أهل قونية أبواب المدينة، فلما كان يوم الجمعة أخذ الخطيبُ ما يملكه من ماله وحلي نسائه، وأحضره معه إلى الجامع، وارْتقَى المنبر، فنادى في الناس قائلًا: يا معشر المسلمين! نحن قد ابتُلينا بهذا العدوِّ الذي دَهَمنا، وما لنا منه مَن يعصمنا، فابْذُلوا أموالكم، واشتروا نفوسَكم بنفائسِكم، واسمحوا بما عندكم لنجمَع مِن بيننا شيئًا نَفْدي به نفوسنا، وحريمنا، وأولادنا. ثمَّ بكى وبكى الناس، وسمح كل أحد بما أمكنه.

فجهَّز الخطيبُ المذكورُ الإقامات، وخرج إلى مخيَّم (بايجو)، فلم يصادِفْه، لأنه كان راكبًا في الصيد، فقَدَّمَ الخطيبُ ما كان معه إلى الخاتون زوجته، فقَبِلَتْه منه، وأقبلَتْ عليه، وأكل من المأكول، وأكلتْ، وقدّم المشروب، فأخذ منه شيئًا على سبيل الشَّشْني، وناوله شابًا كان إلى جانبه ليذوقه، فقالت له: لماذا لا تشرب أنت منه؟ فقال لها: هذا محرَّم علينا. قالت: من حرَّمه؟ قال: اللّه حرَّمه في كتابه العزيز. قالت: فكيفَ لم يحرِّمه علينا؟ فقال: أنتم كفار، ونحن مسلمون. فقالت له: أنتم خير عند اللّه أم نحن؟ قال: بل نحن. قالت: فإذا كنتم خيرًا منَّا عنده، فكيفَ نصرنا عليكم؟ فقال: هذا الثوبُ الذي عليك. وكان ثوبًا نفيسًا مرَصَّعًا دُرًّا ثمينًا. أنت تعطينه لمن يكون خاصًّا بك أو لمن يكون بعيدًا عنك؟ قالت: بل أخصُّ به مَن يختصُّ بي. قال: فإذا أضاعه وفرَّط فيه ودنَّسه، ما كنت تصنعين به؟ قالت: كنت أنكِّل به وأقتله. فقال لها: دين الإسلام بمثابة هذا

الجوهر، واللَّه أكرمنا به، فما رعيناه حقَّ رعايته، فغضب علينا وضربَنا بسيوفِكم، واقتصَّ منَّا بأيديكم. فبكت زوجة (بايجو) وقالت للخطيب: مِن الآن تكون أبي، وأكون ابنتك. فقال: ما يمكن حتَّى تُسْلِمي. فأسلمتْ على يده، وأجلسته إلى جانبها على السرير، فحضر (بايجو) من الصَّيْد، فهَمَّ الخطيبُ بالقيام ليلتقيه، فمنعَتْه المرأة، وقالت: أنت قد صرتَ حماه، وهو يريد يجئ إليك ويخدمك. فلما دخل (بايجو) إلى خيمته، قالت له: هذا قد صار أبي. فجلس (بايجو) دونه وأكرمه، وقال لزوجته: أنا عاهدتُ اللَّه أنني إذا أخذت قونية وهَبْتُها لك. فقالت: وأنا وهَبْتُها لأبي هذا. ثَمَّ أمر بفتح أبواب المدينة، وأمَّن أهلَها، ورتَّب على كل باب شحنة لحفظهم من التتار، ورَسَم أن لا يدخلوها إذا كانت لهم حاجة إلا خمسين نفسًا خمسين نفسًا، لقضاء حوائجهم، ثم يخرجون. فلم يتعرَّضوا لأحد من أهلها بأذِيَّة، فكان ذلك من ألطاف اللَّه الخفيَّة»[1].

هذا والأفلاكي مَن روى: «أن (بايجو) المغولي حين حاصر قونية، والتجأ الناس إلى مولانا، قال لهم: قد وهبكم اللَّه للشيخ صلاح الدين. ثُمَّ قال: ستُحفظ هذه البلدة ـ قونية ـ من سيوف المُغْل إلى يوم القيامة!»[2].

قال أبو الفضل: بالنظر إلى عدم التصريح باسمه في «رواية، فهذا أول ما يأتلف مع ما أرجِّحه من كون الخطيب هو الرومي، فإن شخصية الرومي مبهمة لا تعرفها أكثر المصادرالعربية، وأخرى، وهي أن مجالسته زوجة (بايجو) المغولية، وقبوله بهذه الأبوَّة، وأكله من طعام المغْل، ورأيه في

(١) زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، لبيبرس الداوادار، (ص ٣٢-٣٣)، ونهاية الأرب، للنويري (٢٧/٢٤٠).

(٢) مناقب العارفين، للأفلاكي، (٢/٣٠٦).

الجيش المغولي في قوله لها: «دين الإسلام بمثابة هذا الجوهر، واللَّه أكرمنا به فما رعيناه حق رعايته، فغضب علينا وضربنا بسيوفكم، واقتصَّ منا بأيديكم»، مطابق لرأي الجلال وشيخه التبريزي اللذَيْن كانا يغضبان ممن يتحدث بحضرتهما عن مظالم المغول، يوهمانهم أن ذلك مِن بابة: كما تكونون يُوَلَّى عليكم[1].

قال الأفلاكي: «روى ابن المدرِّس، الجلبي شمس الدين، قال: أقبلَتْ حادثةٌ مهولة ذات يوم إلى مدينة قونية، فهرع الناس بجموعهم إلى البروانة معين الدين (الوزير)، فجاؤوا به منزل مولانا ليكتب لهم كتاب تَشَفُّعٍ، وجعلوا (سلطان ولد) شفيعًا بطلبتهم إليه.

فعرَضها (سلطان ولد) على مولانا، فأرسل مولانا بالكَفِّ عن أهل قونية إلى البروانة، فلما وصل الكتاب على البروانة قبَّله، ثمَّ قال حين قرأه: إن هذا الأمر له تعلُّق بـ(ولد)، لا بد أن يكون حاضرًا أيضًا. فقال: إن كان لهذا الأمر مئة متعلَّق، فإن إرادة الدراويش جعلته ذا متعلق واحد. وكان أهل قونية قد رضوا بدفع عشرة آلاف دينار (ذهبًا) لينصرف عنهم الرعب الذي حلَّ بهم، فأنقذهم مولانا برسالةٍ مباركة منه، من هذا البلاء، مَن يدري ماذا سيكون منه في الآخرة؟!»[2].

وكان مما مدح به (بايجو) المغوليُّ الجلالَ الرومي قوله حين أقبل بجيشه إلى قونية: «يا لعَظَمَة الرَّجُل، أين أجده؟»، وذلك بعد أن حُكِيَتْ له قصة خروج الرومي وأبيه من مُلك (خوارزم شاه) بالتفصيل، فلما سمع ما سمع قال: «أنشدُكم بِشَرَفي ألا تهدموا إلا أبراج البلدة، لأني كنت قد

(١) انظر كتاب: المقالات للتبريزي (٢/ ٧٤).
(٢) مناقب العارفين، للأفلاكي: (١ / ١٠٥).

آلَيْتُ أن أهدمها كُلَّها ! »، فلما شرعوا في الهَدْم سُمِع صراخ وعويل من داخل البلد، فأخبر الأصحاب بذلك مولانا، فقال: لِتُهدم، وليَعلم أهلُ قونية حق العلم أن أسوار مدينتهم، التي يَهُدُّها الخفيفُ من الزلزلة إنما حُفِظَتِ اليومَ بأسوارٍ غير هذه الأسوار، وأبراجٍ غير أبراجها هذه، فلولا رجالُ اللَّه لكانت قونية كَمُدِن عادٍ وثمودَ، والتي جُعِل عاليها سافلها، ثمَّ لَبَكَى أولئك الباكون على أطلالها !! »[١].

كذلك فعل ابنه (سلطان ولد) حين أقبل سلطان المُغْل (كيغاتو) (ت٦٩٤هـ)بنحو خمسين ألفًا جندي إلى قونية، يريد استباحتها، فقيل إنه رأى الجلال الرومي في منامه، وهو يخنقه قائلًا: « قونية لنا، ما شأنك بها ؟ »، ففزع، ولم يؤذ أهلها، ولَقِيَ (سلطان ولد)، الذي حَدَّثَه بعلاقة آل بيتِه الموالية للمغول، ومعاناتهم من عدوهما المشترك (خوارزمشاه)، ومدحه بأبيات من رَطاناته الشعرية[٢]، وأزاره جَدَث أبيه الرومي، وبَذَل السلطان المغولي لمريديه المولوية الأموال.[٣]

ويبدو أن لابن المدَرِّس الجلبي شمس الدين هذا، مكانة كبيرة عند الجلال، فإنه حين هُدِّد من قِبَلِ فقيه من فقهاء قونية بالقول: « سوف أسلخ جِلدك ! »، سارع ابن المدرس بشكواه إلى الجلال الرومي، فردَّ عليه الرومي بسخرية مبطنة بتحدّ فقال: ما أحسن هذا الرجل ! بينا نحن نجهد أنفسنا صُبْحَ مساء لإخراج ذواتنا من جلودنا طلبًا لوصال الحق واشتياقًا إليه، ليته يأتي ليخلصك من جلدك وبلائه »، فلما بلغ هذا القول الفقيه سارع

(١) مناقب العارفين، للأفلاكي، (١ / ٤٥٤).

(٢) انظر المديح في ديوانه المطبوع في تركيا (ص ١٢٧).

(٣) مناقب العارفين،(١/٥٤، ٢/ ١٨٢-١٨٧).

بالمجيء إليه واعتذر، وإنْ صوَّر الأفلاكي اعتذاره تصوير مبايعة واعتقاد في الرومي.[١]

«منقول» لابن السَّرَّاج عن الجلال الرومي:

لا أعلم باحثًا أشار إلى خبر هذا الصوفي الرفاعي عن الرومي قبلي، وفي الاحتمال أنه سمع به من القادمين إلى دمشق إما هجرة إليها، أو مرورًا بها في طريق حجِّهم.

قال ابن السَّرَّاج: «الشيخ جلال الدين، المعروف بمولانا، المقيم كان بقونيا من إقليم الروم، وتُربته الآن ظاهر قونيا، أيضًا. رحمه اللَّه. وكان ذا أحوال عظيمة، وخوارق قلَّ نظيرها.

واتفق أن جماعة من تلامذته، صنع لهم طبيب أدوية، في فضل استعمال الأدوية، قيل أربعون، وقيل أحد عشر، فرأى الشيخ الأدوية، فقال: أنا محتاج إليها، فشرب الجميع من غير استعداد، فبلغ الطبيب، فحمل همَّه، وكان بينهما شنآن كبير[٢]، بحيث كان يصده ويقدحه.

وهذا الطبيب هو أكمل الدين، الرجل الفاضل الذي كان يشتغل عليه أصحاب قاضي القضاة، سراج الدين الأرموي [ت ٦٨٢ هـ] رحمة اللَّه عليهم. فحذَّرهم الطبيبُ من دخول الشيخ الحمام، فبلغ الطبيبَ فقال: احذروا عليه من الجليد، لأنه بقونيا، وبلاد الروم، عرض الثلج بالشام، فقال الشيخ: هاتوا الجليد، ثم دخل بأصحابه الحمام، وصار يضع الجليد على رأسه، من غير حائل إلى أن يذوب وتصير بلاطة الجليد في عنق الشيخ طوقًا، ويشرب

---

(١) مناقب العارفين، (٢/٩٢).

(٢) ألا يسأل سائل من «أحباب» الرومي نفسه: لم كان غير واحد من الشخصيات في قونية معادية للرومي، ثم جاء الرضا عنه؟ أهو رضا أم خوف؟

هو وأصحابه اللبن المخيض المبرَّد بالجليد، إلى أن أتمَّ كذلك ثلاثة أيام بلياليها[(١)].

وفي تلك الأيام أتى البروناه ـ مقدَّم الروم ـ[(٢)] وأشرف على الشيخ من سطح الحمام مستشرفًا، وذلك لأنه سلك أدبًا بحسبه، فلم يدخل على الفقراء الحمَّام، ولكن أخطأ بما فعل أيضًا، فقال الشيخ كلامًا معناه بالعربية: إن هذا الأمير الكذاب جاء يتطلع علينا، لا بدَّ أن يقطِّعوا لحمه، ويطعموه إياه، ويضربوا عنقه.

ففُعِل به ذلك بعد مدة في دولة (أبغا)[(٣)] بن (هولاكو)، ملك التتار،

---

(١) هذه الرواية في رسالة السبهسالار (ص ٨٩)، والمناقب للأفلاكي (٢٩٦/١)، مع بعض الاختلاف.

(٢) قال الذهبي في ترجمة البرواناه: «الصاحب معين الدين البَرَوَاناه (كذا، والمصادر الفارسية تنطقها: البَرْوانة). كان أبوه مهذب الدين علي بن محمد أعجميًا سكن الروم، وكان يقرئ القرآن، ويعلم أولاد مستوفي الروم. ثم إنه ناب عنه، ثم ولي موضعه في أيام السلطان علاء الدين صاحب الروم. ثم ظهرت كفايته فاستوزره مدة. ثم وزر لولده غياث الدين إلى أن مات سنة اثنتين وأربعين. (ت ٦٤٢هـ) ورَتَّب علاء الدين بعده في وزارته ولده هذا، فعَظُم أمره إلى أن استولى على ممالك الروم، وصانع التتار وداراهم، وعمرت البلاد به. وكاتب الملك الظاهر. (انظر: المقتفي ١ / ٣٤٧) وكان من رجال العالم ودهاتهم وشجعانهم، له إقدام على الأهوال وخبرة بجمع الأموال. ثم نقم عليه (أباقا) ونسبه إلى أنه هو الذي جسَّر الملك الظاهر على دخول الروم، فحصل ما وقع من قتل أعيان المُغْل في المصاف. فبكت الخواتين، وشقّوا الثياب بين أيدي (أباقا)، وقالوا: «البرواناه هو الذي قتل رجالنا، ولا بد من قتله». فقتله (أباقا) في المحرَّم (وذلك سنة ٦٧٦ هـ). ومات في عَشر الستين. قيل في سابع عشر ربيع الأول. وقيل: قُطِّعت أربعته وهو حي، ثم ألقي في مِرجَل وسُلِق، وأكل المُغْل مِن لحمه من حنقهم. وقتلوا معه في الروم (الأناضول) خلائق». تاريخ الإسلام، الذهبي (٣١٢/١٥-٣١٣).

(٣) كذا كتبها بخطه، مع قوله في الورقة (١٣٠) من الكتاب: «أباقا، لا أبغا، وبايدو، لا بيدو».

وصار الطبيب بعد ذلك من أكبر محبِّيه وزائري ضريحه بعد موته[١].

وهذا مولانا جلال الدين الرومي من أكابر القوم، وله أحوال عالية، وآثار غالية، وأظنه لم يفعل ذلك إلا طلبًا لإصلاح علة الطبيب الموجِبَة لبغضه له، ولمثله، ورحمة له، فشفقتُهم، ومروءتُهم، وكرمهم وجودُهم، وإحسانهم، وجَبْرُهم، وصفحُهم، وعفوهم، وحِلمُهم إليه المنتهى!! رحمة اللَّه عليهم أجمعين»[٢].

لماذا عاش الروميُّ رُعبًا قبل موته؟

قال الافلاكي: «في الايام التي عزَم (!!) فيها مولانا على الرحيل عن هذه الدنيا، لم يتكلم مع أي إنسان ثلاثة أيام بلياليهن ولم يكن لدى أحد مجال كي يكلمه، فجاءته زوجته ودَنَت منه، وانْحَنَتْ له راكعة وسألته عن سبب الضيق الذي يجده، فقال: إنني أفكِّر كيف ستكون مِيتَتِي؟!»، ونقل -أيضًا- أنه كان يُقْبِل ويُدْبِر مشيًا في مدرسته، مُطْلِقًا الصَّيحات والآهات[٣]. واذا عرفنا أن انتصار السلطان (بيبرس) على المغول في موقعة البيرة كانت قبل سنةٍ من موت الجلال الرومي، وأن بيبرس كان قد توَجَّه في السادس والعشرين من المحرم من سنة ٦٧٢ هـ إلى الشام، ثم رجوعه الى القاهرة، ثم عودته الى دمشق في سبعة عشر من صفر من السنة نفسها[٤] وأن تاريخ وفاة الرومي الخامس من جمادى الآخرة منها[٥]، عرفنا سببًا منطقيًّا لرعب الرومي!

---

(١) نعلم من ذلك أن أكمل الدين الطبيب كان حيًّا بعد سنة ٦٧٢ هـ.

(٢) تشويق الأرواح، لابن السراج: (الورقة ٢٨٣-٢٨٤).

(٣) مناقب العارفين، (٢/١٥١، ١٥٢).

(٤) المقتفي، للبرزالي (١ / ٢٦٩، ٢٨٣، ٢٨٦).

(٥) مناقب العارفين، للأفلاكي (٢/١٦٧).

ابن الجلال الرومي «سلطانْ وَلَد»:

سارَ (سلطان ولد)[١] على نهج أبيه، فأهدى ديوانه (ولَدْ نامَه) إلى السلطان المغولي (ألجايتو خان)[٢]، وقال أبياتًا في مدح أمراء المغول، بينهم (كيغاتو بن هولاكو) (ت ٦٩٤هـ) الذي تسلْطَن على المغول زمنًا قصيرًا[٣]، ويبدو أن المولوية، وعلى رأسهم (سلطان ولد) كانوا يؤيدون (كيغاتو) في خلافه الشديد مع ابن أخيه (بايدو)، فلذلك أغدق عليهم الأوَّل أموالًا عندما زار قونية، وأخذه (سلطان ولد) إلى قبر أبيه الجلال الرومي، حيث حدَّث ملك المغول بما هو - أغلب الظن - على خُبْرٍ به، من معاناة جدِّه وأسرته مع خوارزم شاه، وعداء آل بيته له، وما هذا التذكير إلا تقرُّب آخر إلى دولة المغول، وشكران لهم؛ إذْ قضوا على مُلك خوارزم شاه، ولسان حاله يقول: عدوُّ عدوِّي صديقي[٤]. فهذا تفسير موقف (كيغاتو) الذي ذكره بعض المؤرخين عنه، من أنه كان «له مَيْل كثير إلى المسلمين، وإحسان إلى الفقراء القلندرية»[٥].

مَن أشْبَه «جَدَّه» فما ظَلَم!

أما حفيد الجلال الرومي، المعروف في تاريخ القوم - أعني المولوية - بعارف جَلَبي (ت ٧١٩هـ)[٦]، فكان على ولاء للمغول أصرح، وملامية

---

(١) المعارف، لسلطان ولد (ص ١٣٩، الفصل ١٨) حيث تجد ولاءه للمغول واضحًا.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية (٩٦/١٢).

(٣) ديوان سلطان ولد (ص ١٢٧).

(٤) مناقب العارفين، للأفلاكي (٥٤٠/١، ١٨٤/٢-١٨٧).

(٥) تاريخ حوادث الزمان، لابن الجزري (٢٤٠/١، ٢٤١)، والذهبي، تاريخ الإسلام (١٥/ ٧٧١).

(٦) مناقب العارفين، للأفلاكي (٥٢١/٢-٥٢٣).

أظهر وأشنع، فهو الذي كان يسمِّي غازن الطاغية بالسلطان العادل[1]، وحين مات صلى عليه صلاة الغائب[2]، مع أن فقيه الأحناف في عصره، المعروف ببدر الرشيد (ت ٧٦٨هـ)، نقل عن إمامهم أبي منصور الماتريدي أن « من قال لسلطان زماننا: عادل، كفر! »[3].

وقد ارتحل إلى (السلطانية)، قاصدًا لقاء خليفةِ خفير المغول الشيخ بَراق، المدعو: (حيران أميرجي)، وبدا من الخبر أن صداقة حميمة على نغمات السماع، وقداح الخمر[4]، كانت تربط بينهما[5].

وكان عارف يعلن ولاءه للمغول، ويخاطب بذلك ولاة أمره في قونية من بني قَرَمان المسلمين بإسلامٍ أصحَّ من إسلام المغول، وهم أصحاب البلد، بعد السلاجقة، معلِّلًا موقفه بالقول: نحن دراوشة نَظَرُنَا مربوط بإرادة اللَّه، فمن أراده اللَّه، وأعطاه البلاد والمُلك، فنحن معه ونرغب فيه! ويريد اللَّه الآن عساكر المغول ولايريدكم. قد أخذ البلاد من أيدي السلاجقة وأعطاها لأتباع (جنكيز خان) الخائن ﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٧]، ونحن إنما نريد ما يريده اللَّه![6]

(١) المصدر السابق (٢/٤٥١، ٤٢٠).

(٢) ومما يلحظ أن ابن السَّرَّاج، وهو قاضٍ لكنه رفاعي، قد ترَحَّم عليه عند ذكره في موضع من: تفاح الأرواح (االمنقول ٣٤٦)، وموضع العجب أنه دمشقي عاصر الأهوال والمظالم التي ارتكبها غازان.

(٣) ألفاظ الكفر، لبدر الرشيد الحنفي (ص ١١٥).

(٤) انظر كتابي: أخبار جلال الدين الرومي، لأبي الفضل القونوي (ص ٣٤٤-٣٤٩).

(٥) مناقب العارفين، للأفلاكي (٢/٤٥٥).

(٦) انظر: أخبار جلال الدين الرومي، (١٠٧-١٢٣).

إلى مقدِّسي الرُّومي: قد اتَّسَع الخَرْق جدًّا!

يَجدر التعليق على مرتكَز المدافعين عن الجلال الرومي وحزبه، في تعليل علاقتهم الوثيقة بالمغول، وإن أقوى حُجَّةٍ لهم في ذلك أنه إنما فعل ذلك طمعًا في إسلامهم! فنقولُ أولًا يُصحَّح قولكم، فيقال لكم: بل طمعًا في «أسْلَمَتُهم مولويًا» وعذرًا للقارئ من استخدامي لفظة (أسلمة) ولكنها مفهومة في المحصَّل.

وإن مما يُرثى له أن تُنشر كتب الرومي مثل: كتاب (فيه ما فيه) ورسائله، وتمرُّ المعلومات الكثيرة فيهما، التي يجب أن تُضمَّ إلى ترجمته فلا يشار إليها، لا من الناشرين لها، ولا الكثرة الغُثائية ممن كتبوا سيرة «مولاهم»، فإن بين رسائل الرومي رسائل إلى معين الدين (البرواناة) الوزير الأول في السلطة السلجوقية الخاضعة للمغول، ورسائل إلى رجال الدولة - وكانت الدولة سلجوقية بالاسم مغولية في المعنى - مثل: تاج الدين المعتز، ونور الدين جاجا، والأتابك مجدالدين، وفخر الدين عليّ، وجميعهم ممن عيِّنوا في مناصبهم من قبل المُغْل أو (بضوء أخضر) منهم. وقراءة متأمِّلة في هذه الرسائل إلى هذه الشخصيات تُرِيك اتفاق المرسِل والمرسل إليهم في الوضع السياسي في ذلك العهد، وأن الرومي كان قُرَّة أعين رجال الدولة الإلخانية المغولية.

خفير المغول والنصارى الشيخ صاري صالطوق:

صاري صالْطُوق[1] القِرِمي (ت ٦٩٧هـ) قليلةٌ في المصادر أنباؤه، ويُعَدُّ

---

(١) ضبطَها محمدُ بن السَّرَّاج الدمشقي ضبطَ حرف كما تراها أنت بالشكل بأعلى، وقال: إن هذا هو المشهور. ولكنها كُتبت (سلتق)، وضبطها الدكتور عمر تدمري في (المقتفي): (سَرتُق)، وهي في المطبوع من (أعيان العصر) للصفدي: (شريق)، وجميعها من غلط النسَّاخ.

كتاب ابن السرَّاج الدمشقي المعاصر لهذه الشخصية، أكثرها إيرادًا لها.

وقد مرَّ ابن بطوطة (ت٧٧٩هـ) بديار الشيخ (صالطوق) في شبه جزيرة القِرْم، بعد موت الأخير بنحو من ثلاثين سنة، وسمع بها من خبره ما هو جدير بالتأمل. قال: «ثم وصلنا إلى البلدة المعروفة باسم: بابا سلطوق، و(بابا) عندهم بمعناه عند البَرْبَر سواء، إلا أنهم يُفَخِّمُون الباء، وسلطوق، بفتح السين المهمل، وإسكان اللام، وضم الطاء المهمَل، وآخره قاف. ويذكرون أن سلطوق هذا كان مكاشَفًا، لكن يُذكر عنه أشياء يُنكرها الشرع»[1].

وقال ابن السَّرَّاج الدمشقي، في كتابه (تفاح الأرواح)وهو مصدرٌ أوَّل لكتب طبقات «لأولياء» من الصوفية: «هذا الشيخ (سلتق) من أكابر الأولياء، وأعيان الرجال، وسادات الطريق، له الكرامات الباهرة، والأحوال العظيمة، صَحِب الشيخَ محمودًا الرفاعي، والشيخُ محمود أخذ عن الشيخ شمس الدين المستعجل. وكان الشيخ (سلتق) ببلدة صغيرة، يقال له: (صبحي) بالقفجاقية، وقد سأله الفقراء إحداثَ ماء فيها، فضرب بيده صخرة، فنبعتْ العَيْن لوقتها واستمرَّت. وتُربة الشيخ تبعُد عن بلدته (صبحى) نحو ثلاث ساعات». وقد لقيَ ابنُ السَّرَّاج بعضَ مريديه في ثَغْر (بَهْسَنِي) سنة ٧٠٣هـ، ثم بدمشق، وكانوا في طريقهم إلى الحجاز، وعلى رأسهم مريده (بهرام شاه) (ت ٧٠٤هـ).

وقد أكدتْ روايته عنهم كونه من القرم، وأن له بها زاوية تَسَعُ ثلاثمئة من المريدين، قال: «وكان قد تابعه في جملة المتابعين - وهم الألوف

---

(١) الرحلة، لابن بطوطة (ص ٢٦٧).

الكثيرة - أربعون بنتًا، ومات وهُنَّ مقيمات في حِماهُ، وتزوج بعضهن، وولدت بنات فأتين بهن، وجعلنهن مكانهن مرابطات على العبادة، وأنواع المجاهدة ! ».

وتقاسم مريدوه قميصه، وقد استهدى القاضي ابن السَّرَّاج بعض مريديه قطعة منه، قال: « لنضعه في أكفاننا » !!، وأخبر أن رجلًا اسمه طلاق - وتعني بالقفجاقية الأبيض - قد خَلَفَه على الزاوية.

وقال: « روينا أنه قال: بعد موتي بخمس سنين، يرسل بعض الملوك - وهم ملوك إصطنبول - فيطلب أخذ جثتي لتدفن في بلادهم تبركًا ! ».

ثم أورد أنهم بعد المدة المذكورة، جاؤوا من إصطنبول، فزعموا أنهم أعطوا رسل الملك جثة غيره من المسلمين، كما أوصاهم بذلك قبل موته، وأنهم وضعوه في تابوت معلق بسلاسل في مكان عال، وأن ملوكهم يستنصرون ببَرَكته، وأن حُرمته وجاهه عندهم بلغتِ الغاية. ثم جعل يُزرِي على أهل الشريعة، ويعيبهم لعدم احترامهم (صالطوق) احترامَ النصارى له، وسمى ذلك فضيحة !

أما تعليل هذا الحب النصراني لـ (صالطوق)، فقد قال: إن لذلك أسبابًا كثيرة، لكنه نقل إلينا قصة إنقاذه أسيرًا نصرانيًا من يد أمثالهم (يُفهم أنهم قراصنة). حكى ذلك في سياق خرافي أسطوري.

بَيْدَ أني أرى أن تَعلُّق النصارى بهذه الشخصية، ينبغي ألا يقتصر في تفسيره على ما ذكره هنا ابن السراج ؛ إذ لا بُدَّ أن لـ(صالطوق) سابقة « خدمات » لحكومةِ بِيزَنْطَة، وهي إمدادها بأخبار البلاد الإسلامية عن طريق المريدين والمريدات، الذين فرَّقهم في البلاد « خلفاء »، وإلا فإن أمثاله من ذوي الخوارق من الصوفية كثير.

و قال ابن السَّرَّاج: «وروينا أن الشيخ (سَلْتُق) رضي اللَّه عنه، حين جلس على السجادة، بعد المقام بالجبال، والتفرد بالحال، جاء شخصٌ، فقال له الشيخ: تذكر حين جئتَ إليَّ في الجبل الفلاني، في حالِ وَلَهِي، وأطعمتني رغيفًا على أنه خبزٌ، وكانَ مِن أرواث البقر؟ قال: نَعَمْ، قال: أنت من المستهزئين بأولياء اللَّه تعالى!! فلا بُدَّ أن أعمل معك شيئًا يتأدَّبُ به أمثالُك، وهو أنِّي، فَلَم يُتِمَّ قولَه: إني، إلا وذلك الرجلُ الجاهل قد انشَقَّ بطنُه أفحشَ انشقاقٍ، فكانت هي القاضية!».

ولم يُهمِل هذا القاضي الرفاعيُّ أن يُعلِّقَ على هذا الإجرام بقوله: «وكذلك يستحقُّ كل من يعاند أولياء اللَّه، ويستهزئ بأحوالهم!».

وليتَني مُكِّنت من الوقوف على بقية أجزاء كتابه الذي ذكر أنه سيتحدث فيه عن بَراق، وزميل له، سماه: شيخنا محمد المرستاني[(١)].

وقد نقل لنا ابن السَّرَّاج في كتابه: (تشويق الأرواح) بعض ما ينكره الشرع عليه عندما ذكر «كرامة» له - بزعمه - في أكل الحشيشة!![(٢)].

وقد ذَكَرَ بعض الدارسين لهذه الزُّمَر أن (صالطوق) لقي جمال الدين الساوي شيخ القلندرية في دمياط، وأنه نزل بزاويته أكثر من شهرين[(٣)].

الخفير والسفير: بَراق القِرْمي:

هو شيخٌ من شيوخ صوفية التُّركمان في الأناضول، حيدريُّ الطريقة، قلندريُّ المشرب، من قرية من قرى مدينة (تُوقاد)، وكان أبوه صاحب إمرة وولاية، وكان عمُّه كاتبًا مُجيدًا معروفًا، وزعمت بعض المصادر أنه أحد

---

(١) تفاح الأرواح، لابن السراج (المنقول ٣١٥-٣٢٢).

(٢) تشويق الأرواح، لابن السراج (الورقة ١٨١).

(٣) يونس أمره والتصوف (ص ٣٥) لكولبينارلي.

أبناء السلطان السلجوقي عزِّ الدين (كيكاوس) (ت٦٧٢هـ)، الذي هرب من أخيه السلطان ركن الدين إلى (إصطنبول)، ثمَّ سُلِّمَ إلى السلطان المغولي (بَركة خان) (ت٦٦٥هـ) الذي انفصل بما تحت يده من بلاد القِرْم عن مغول الشرق.

وذكروا أن الشيخ (صاري صالْطُوق)، كان ذو مكانة واحترام عند بطريارك إصطنبول، وأنَّ الأخير كان قد اتخذ أحد الأميرَيْن السلجوقيَّيْن ولدًا، فطَلب إليه (صالطوق)، أن يَهَبَه الأميرَ الشاب، ففعل، فأدخله « الإسلام »، وصار الشابُّ - بعدُ - مُريدًا له. ثم إنه أعطاه « خلافته » على الطريقة، وأرسله إلى مدينة (السلطانية)، وهي يومئذ عاصمة المُغْل، حيث اشتهر، وتكاثر مريدوه، الذين أُطلق عليهم بعدُ: (البَراقيون)[١].

---

(١) تاريخ الملك الظاهر (ص ٧٨) لابن شداد. وانظر: المقتفي، للبرزالي (١/٣١٠). وجامع الدول، للمؤرخ العثماني منجِّم باشي أحمد، نقلاً عن كتاب: يونس أمره والتصوف، لعبد الباقي كولبينارلي (ص ١٧-١٩). ويُشار هنا إلى أن الشاعر التركي « الشَّعْبِي » يونس أَمْرَه، وشيخه: (طابدوق بابا)، كانا من جملة البَراقيين. وقد كانت لأبي السعود العمادي (ت ٩٨٢هـ) رحمه اللّٰه تعالى، وكان في منصب شيخ الإسلام في الدولة العثمانية، مواقف يشكرها له أهل العلم، في فتاوى له تحذر من الصوفية المنحرفة، وقد وقفت على فتويين له في (صالطوق) ويونس أمره. وكان السؤال: « هل الشخص الذي يقال له (صاري صالطوق) من أولياء اللّٰه؟ بيِّنوا لنا مُثابِينَ »، فكتب باختصار: « الجواب: هُوَ راهبٌ، أحالَتْهُ الرياضةُ إلى قَديد! ». وحَكَم بكفرِ قائل هذه الأبيات (المعروف أنها ليونس أمره)، المستخِفَّةِ بثواب اللّٰه الأعظم، وإنْ لم يصرح باسم قائلها:

الـجَـنَّـة الـجَـنَّـة الـتـي يُـردِّدون

ماهيَ إلا بُيوتٌ، وحُورٌ معدودات!

أعْطِها لِطُلَّابِها! أنتَ بُغْيَتي أنتَ!

انظر كتاب المؤرخ التركي أحمد ياشار أوجاق: تمرُّد البابائيين (ص ١٨٧)، والعجب من ابن كمال باشا (ت ٩٤٠هـ) الذي كان في منصب « شيخ الإسلام » كيف عدَّه من كبار =

و (بَراق) لقبٌ غَلَب عليه، لقبَّه به شيخه (صالطوق)، فإنه أكل من قيئه، فقال له: أنت بَراقي[١]، وبَراق بالقَفْجاقية: الكلب.

الشيخ براق في بلاط ملك المغول:

امتثلَ (بَراق) وصاةَ شيخه (صالطوق) في قصد بلاد المغول وحاضِرتهم، وراحَ يُظهِر فُنون شعبذته، وهي فنونٌ تستحوذ على عقول من كانوا بالأمس يدينون بالشامانية الوثنية، بل بقي كثير منهم على خرافاتها سنين طويلة.

ولعل التشابه في الأطوار والأفعال بين رجال الدين في المجتمع المغولي، وبين زمر القلندرية[٢] - كهيئة (بَراق) وأتباعه حذو القذة بالقذوة - كانت العامل الأقوى لوجود الألفة بينهما، تلك الألفة التي لم يَلْق البَراقيون مثيلها في الشام، وعبَّر عنها أحد القلندرية في مناظرة مع شيخ الإسلام ابن تَيْمِيَّة، فكانت فَلْتة من المناظر الرفاعي ضبطها عليه الحاضرون، وذلك عندما صرَّح قائلًا: «نحن أحوالنا إنما تَنْفُق مع التَّتَر، ليست تنفق عند الشرع!»[٣].

بلغ الشيخُ بَراق مبتغاه حين نَمَى إلى سلطان المغول غازان صِيتُه، فأرسل إليه يدعوه، ليرى بعض «كراماته»، وهي بأن توصف بالسِّحر

= الأولياء؟! المرجع السابق (ص ١٨٧)، ولكن معلوم أنَّ الجارحَ الثقة لديه زيادة علم فقوله هنا مقدم عند أهل الاختصاص. وانظر: فتاوى أبي السعود أفندي، جمع: محمد أرطغرل دوز داغ (ص ٨٧).

(١) في المصادر العربية: (بَرقي) بغير مدة، وهو خطأ.

(٢) انظر كتاب: المغول، بيئتهم الطبيعية وحياتهم الاجتماعية والدينية (ص ١٣٥-١٤٤) لسعد الغامدي.

(٣) البداية والنهاية، لابن كثير (٣٨/١٤).

والشعبذة، وبنتاج مِرانٍ ودُرْبَة طويلين، أولى من وصف الكرامة. فكان أنه لما حضر إلى غازان، سلَّطوا عليه سَبُعًا ضاريًا، فوثب عليه بَراق، واستوى على ظهره. وقيل: بل سلَّط عليه نَمِرًا، فصاح عليه، فانهزم النَّمِر، فأكبرَ ذلك المُغْل واستعظموه.

ثمَّ صارت للشيخ بَراق عند غازان منزلة كبرى، وأغدقوا عليه من أموالهم، وهي أموال المسلمين المغتصبة في أصلها، ولم ينس هو أن يتقمص زهد المتصوفة حين أعطاه غازان مرة ثلاثين ألفًا، ففرَّقها في يوم واحد[١].

وكان يغشى مجالس غازان مع لفيفٍ من أمثاله من شيوخ المغول وخدمهم، يتجاذبون أطراف الكلام مع طاغية المغول، ويحدثونه بولاءات الصوفية -الوجودية منهم بخاصة - لبني (هولاكو)، ويُنشدونه من شعر جلال الدين الرومي ما مدح به المغول، مثل هذا البيت الذي أعجب (غازان) حتَّى أمر بكتابته على عباءته:

إنك لتخشى المغول لأنك لا تعرف اللَّه
بَيْدَ أنِّي أقصدهم بمئتي راية إيمان[٢]

وحين تولَّى (أولجايتو) الملقب بـ(خدا بنده) المُلك، وترفَّض، وانفضَّ بسبب ذلك بعض مَنْ عُدَّ مِن أهل السُّنة من مجلسه وجواره، يُلحظ أن

---

(١) ويَرِدُ أن (البراقيين) وشيخهم حين دخلوا مدن الشام التزموا بتقية انخدع بها الدماشقة، فهذا الحافظ البرزالي قال عن (براق) ومريديه: «ومما يُثنى عليه به، أنه هو وجماعته يلازمون الصلاة، ومَن فاتته صلاة في وقتها ضرب أربعين سوطًا، ولهم ذِكْرٌ بين العشاءين، وكَرَمُه زائد!!». المقتفي (٣/٣٢٤).

(٢) مناقب العارفين، للأفلاكي (٢/٤٤١).

مكانة (بَراق) بقيت كما هي من الإكرام له والتعظيم لجانبه، بل وحَظِي عند (خُدابَنده) هذا بالمكان الذي حظي به الشيخ المحتال عبد الرحمن، عند السلطان أحمد بن هولاكو، فكان أن أرسله إلى الملك الناصر، في صُلح مزعوم، ورسالة شفوية، وأعطاه لواء السلطان المغولي، وكتابه إلى البلاد التي يمُرُّ بها، بأن يخدموه أوفر خدمة وأحسنها، فلما وصل من جهة الأناضول إلى عاصمة أرمينيا الصغرى (سِيس)- وهي جنوب تركيا الآن- وسمع صاحبها بمقدمه، ركب إليه يستقبله، ثم أنزله في دار الضيافة، وحمل إليه كل ما يحتاج إليه.

وكان معه (فَرمان) من (خدابنده) يأمر فيه صاحب (سِيس) بإعطائه عشرة آلاف درهم، فأعطاه المال، وسيَّر معه حرسًا وخدمًا يرافقونه إلى (دَرْبِساك)، وهي حدوده مع البلاد الإسلامية المملوكية. ثم إنه وصل إلى حلب، فعلم واليها (قراسنقر) (ت ٧٢٨هـ) بقدومه، فطلبه إليه، فلما حضر قربه وأدناه، ولما خلا به، سأله عن سبب قدومه، فقال: جئت حتَّى أصلح بين الملك الناصر وبين (خدابنده) بحيث أن لا يعلم بذلك أحد غيره!

فأرسل (قراسنقر) بالخبر إلى الملك الناصر، فجاء البريد بعد قليل بطلبه إلى دمشق، فجهز (قراسنقر) معه جماعة يخدمونه إليها، ودخلها في يوم مشهود سنة (٧٠٥هـ) أو (٧٠٦هـ)[١]؛ لأنه قد كان وَقَع صيته بين الناس بأن شيخًا جاء من بلاد المغول يركب السَّبُع.

كان في معيَّته مئتا (وقال البرزالي: نحو المئة) قلندريٍّ حيدريٍّ من أتباعه، تعجَّب الدماشقة من مَرآهم، ويأخذنا الدهَش يومنا هذا، ونحن

(١) وَهِمَ ابن تغري بردي إذ أورد خبر مقدمه سنة (٧٠٣هـ).

نقرأ وصْفَهم عند البرزالي، والصفدي وغيره؛ فقد كانوا محَلَّقي اللحى، وشواربهم وافرة، وعلى رأس كل واحد قرنان مصنوعان من اللباد، على صفة قرون البقر، ومعلِّقين في رقابهم أجراسًا، وكعاب الأبقار والأغنام[(١)]، وسلاسل الحديد، وبأيديهم جواكين خشب[(٢)].

وذُكِر أنهم كانوا مقلوعي الثَّنية العُليا، وعليهم فروٌ مصبوغة بالحناء، قال الصفدي: إنه رأى واحدًا من هؤلاء البَراقيين، وقد جاء إلى صَفَد، لكنه لم يتحقق من كونه مكسور الثنية العليا[(٣)]، ونفهم مما حكاه أيضًا: أنهم كانوا حديث الناس وشغلهم، حتَّى بعد رحيلهم عن بلاد الشام، بل إن أصحاب ألعاب خيال الظِّلِّ استخدموهم في مَلْهاتهم أمام عوامِّ الناس[(٤)]، حتى نظم عمر بن مسعود المحَّار (ت ٧١١هـ)، منظومة عاميَّة تُعبِّر عن رأي الدماشقة في الشيخ بَراق[(٥)]، الذي لم يجد هو ولا البَراقيون لهم في دمشق قَبولًا[(٦)].

ونقل ابن السَّرَّاج في كتابه (تشويق الأرواح والقلوب)، قال: «لما دخل دمشق - حرسها اللَّه تعالى - أنكر حاله وزيَّه جماعة، لكن أتوه يوم الخميس متأدبين، فسأل: ما حاجة العلماء؟ فقالوا: نريد أن نرى أحوال الشيخ، فتطمئن به قلوبنا، فقال: جوابكم غدًا بمقصورة الخطابة إن شاء اللَّه تعالى.

---

(١) الكعاب عظام المفاصل، وذكر الصفدي أن هذه الكعاب كانت مصبوغة بالحناء!

(٢) الجواكين جمع جُوكان، وهو المحجن أو الصولجان الذي تضرب به الكرة. انظر: صبح الأعشى، للقلقشندي (٤٥٨/٥).

(٣) الوافي، للصفدي (١٠٧/١٠).

(٤) أعيان العصر، للصفدي (٦٨٢/١).

(٥) أعيان العصر (٦٨٢/١)، والوافي (١٠٧/١٠).

(٦) عقد الجمان، للعيني، المصدر السابق (٤٢٢/٤).

وفي الغد؛ بكَّر هو وأصحابه، ومعهم من يريد نظر ذلك، فلما أقيمت صلاة الجمعة لم يقوموا، فقام أشخاص ممن ينتمي إلى الفقر والعلم وسألوه: ما سبب ذلك؟ متخوِّفين من هضم جانب الفقراء العزيز، فقال: لا نصلي خلف الخطيب لما يَعلم هو. فسألوا الخطيب، فأنطقه الذي أنطق كل شيء، وقال: نسيت غسل الجنابة، فصلى بالمسلمين غيره، وكان ذلك يومًا مشهودًا، ومن آيات الفقر وأهله معدودًا ...»[١].

بعض عاداته:

كان بَراق شخصية متحكمة في مريديه، لا يقبل خروجًا عن أوامره؛ تأثر - لا جَرَم - بسادته المغول، فجعل لنفسه من أتباعه نائبًا، وقاضيًا، ووزيرًا، وحاجبًا، ومحتسبًا، ومسؤولًا عن السلاح[٢]، أما ضَرْبُه مَن ترَك الصلاة من أتباعه - الذي ذَكَره مَن ذكره نقلًا عن البرزالي - فمخالفٌ لملامِيَّتِه، التي زعم أنه إنما ظهر بصورته البشعة تلك لأجلها، ويحتمل أن يكون الضرب لسبب آخر، لكنه أعلن للناس أنه كان بسبب ترك الصلاة. ويَرِدُ - أيضًا - أنه أمرهم بأدائها عند دخولهم الشام تقية[٣]، هذا وهم يأكلون الحرام، وأكثرهم لا يصومون شهر رمضان[٤].

و ذكروا: أنه لما دخل الميدان، في دمشق، أرسل الأفرم (ت٧٢٠هـ) نعامة، كان أمْرُها قد تعاظم، فلا يكاد يقاومها أحد، سَلَّطها عليه، فَرِكبها،

---

(١) تشويق الأرواح، لابن السَّرَّاج (الورقة ١٨٢).

(٢) عقد الجمان، للعيني (٤/٤٠٦).

(٣) يونس أمره والتصوف، لعبد الباقي كولبينارلي (ص ٢٣).

(٤) عقد الجمان، للعيني (٤/٤٠٦)، وإن صام بعضهم، فهم بين القِلَّة والتَّقِيَّة، هذا ما تقضيه الملامتية في مشربهم.

فطارت به في الهواء في الميدان خمسين ذراعًا تقريبًا، وأنه قَرُب من الأفرم، وقال له: أطير بها إلى فوق شيء آخر؟ فقال: لا، ثم أحسَن إليه. ونسي مَن اختلقَ القصة أن النعامة لا تطير!!

ويبدو أن الصحيح من القصة ما نقله العيني، وابن حجر العسقلاني، وغيرهما، وإن كانت رواية العيني أكثر تفصيلًا، قال: «... إلى أن دخل ميدان دمشق إلى القصر الأبلق، وحوله أصحابه، وكان نائب السلطان الأفرم جالسًا في شُبَّاك القصر الذي يُشرِف على الميدان، وحوله أمراء دمشق، مثل: (بهادر) رأس نوبة، و(قُطْلبك) الشيخي، و(بكتمر) أمير آخور، و(البدري)، و(قلطوبك الوشاقي)[1]، فلما رآهم بَراق زَمْجَر، وأخذه حالُ الفقراء، وحمل عليهم يطلبهم، وكان في الميدان طير نعامة، لها أربع سنين يربُّونها في الميدان، فلما رأت الشيخ بَراق حملت عليه، وقبضت بفمها على رقبته، وكادت تقصفها، وأرمت بَراق تحته (اقرأ: تحتها)، وبرَكَتْ فوقه، ولو لم يدركه الرجال لمات بَراق تحته (تحتها)، فتعجب الناس منه، وعلم بَراق أن هذه عبرة ليعتبرها، فأسرَّها في نفسه!

ثم لما قام، تقدَّم إلى الأفرم وسلَّم عليه، وكذلك سلَّم على الأمراء، فقال له الأمير بهادر آص (ت٧٣٠هـ): أيش هذا يا بَراق؟ أنت تقول إنك تركب الأسد في خراسان، فهذا طير من طيور الشام عمل بك ما حارت به الأوهام، ولكن أَزِلْ ما [في] قَلبك، واستغفر ربك، وتأدب مع رجال الشام.

ثم إن (بهادر آص) حقَّق النظر فيه، فإذا هو محلوق الذقن، وقد عفى عن شواربه، وفي رقبته خيوط من صوف الأغنام، وفيها كعاب البقر والغنم

(١) يُنظر في كتاب (الدررالكامنة) لابن حجر لمعرفة تراجم هؤلاء الأمراء.

والأحراش، فقال له: أيش هذا؟ [هذا] هو دينك؟!

فقال: يا أمير؛ المملوك رجل فقير من جملة فقراء المسلمين[١]، فقال له (بهادر آص): ما أنت مسلم. فقال له: لم؟ فقال له: بدليل واضح؛ لأن النبي ﷺ قال وهو صادق في المقال: (قصُّوا الشوارب واعفوا عن اللِّحى)[٢]، وأنت خالفت؛ قَصَّيْت اللحية وعفوت عن الشارب، وهذا مخالفة لدين الإسلام ولمحمد ﷺ، واللَّه لولا حرمة مولانا السلطان لأضربنَّ رقبتك! فقال الشيخ بَراق: أستغفر اللَّه من سوء فعلي. ثم إن (بهادر آص) طلب مقصًّا، فقصَّ شواربه»[٣].

ثم أمَر كبيرًا من كبراء المماليك أن يُنزلوهم في (المنَيْبع)، وهو متنزَّه من متنزهات دمشق[٤]، فيه زاوية للرفاعية، كان صالح بن عبد اللَّه الرفاعي البطائحي شيخها يومئذ (ت٧٠٧هـ)، ويبدو أن هذه الزاوية كانت محَطَّ استراحة لخفراء المغول، فشيخها مكَرَّمٌ عندَ المغول، ولأمْرٍ ما نزَلها مريد الشيخ بَراق، الأميرُ المغولي (قُطْلُوشاه) نزَلَ بهذه الزاوية ضيفًا على الشيخ صالح المذكور عند غزوهم أرض الشام[٥].

ولا يَبعُد أن بَراق طلب السماح بإنزاله وإنزال مريدِيه عندهم، فقد كانوا في التَّمَفْقُر سواء، وفي الولاء للمغول متفقون، وإن تمايزوا في بعض هيئاتهم.

---

(١) يقصد: صوفي قلندري من جملة الصوفية القلندرية.

(٢) وهي من الفطرة كما تقدم. انظر: صحيح مسلم (رقم ٢٦١، في الإيمان، باب خصال الفطرة).

(٣) عقد الجمان، للعيني (٤/٤٢٤-٤٢٥)، والحظْ العامية في التعبير.

(٤) منادمة الأطلال، عبد القادر بدران (ص ٤٠١).

(٥) البداية والنهاية، لابن كثير (١٤/٤٩)، والدرر الكامنة، لابن حجر (٢/١١٩).

ولما نزلوا في (المُنَيْبع)، وأُكرموا من قبَل المماليك[(١)] ؛ لأنهم في معية سفير المغول إلى الدولة الإسلامية في القاهرة - وإن كنت أعجب معك ؛ كيف يُقَصُّ شارباه، ويُخاطب بذاك الخطاب مع هذا الإكرام ؟ - أَرْسَلُوا إلى القاهرة بشأنه، فجاء الرد منها بطلبه، فجهزه النائب، ورتب له الإقامات في الطرقات إلى غزَّة، لكنه لما وَرَدَها، كان رأي المماليك في القاهرة قد استقرَّ على ردِّه من حيث أتى، وأرسلوا إليه بأن يُمْلي رسالته الشفوية من (خدابنده) في كتاب، والاكتفاء بهذا.

وقد ذكر المصدر التأريخي الذي نقل عنه العيني أن الأمراء خشوا من دخوله إلى مصر غائلة !![(٢)].

وكانت هيئة السفارة البَراقية قد مَرَّت بالقدس في مهمتها السياسية، فلما مُنِعوا، رجعوا إلى دمشق، وأقاموا شهر رمضان، وسافروا بعد العيد، وكانوا قد وصلوا أول الأمر إليها في التاسع من جمادى الأولى.

وذكر علم الدين البرزالي - المعاصر لهؤلاء بدمشق -: أنهم «لما رجعوا إلى دمشق من القدس تركوا القرون، وحلقوا الشوارب واللِّحى»[(٣)]. وهذا يعني أنهم دخلوا على أهل دمشق هذه المرة بهيئة من ألِفَهُم أهلها، واستقرَّت زاويتهم بين ظهراني الدماشقة منذ سنين طويلة، دون كثير

---

(١) من حِيَل شيخ الحيدرية براق هذا أنه كان يتأبَّى قبول مكرمات المماليك، ثم يترك قطعان مريديه يستلمونها، وهل جيبُ مَنْ له جلاَّدِين و(محتسب)، وعِصِيُّ الفَلَق (الفلقة)، ومَن وُصِف في (عقد الجمان) بأنه جبَّار من الجبابرة، إلا جيوب أتباعه ؟ أوَ ليس المريد عند شيخه كالميت بين يَدَيْ غاسله ؟ !

أعيان العصر، للصفدي (١/٦٨٢)، وعقد الجمان للعيني (٤/٤٠٦).

(٢) عقد الجمان، للعيني (٤/٤٢٥).

(٣) المقتفي، للبرزالي (٣/٣٢٤).

استنكار، ألا وهم القلندرية، وهذا الذي فهمته من صنيعه، لمحته، بل استدللت عليه بقول البرزالي عنه: «أُنكِر عليه غير مرة في بلاد متعددة؛ فتارة يحتج بالقلندرية ...»، فكأنه قال لأهل دمشق والمماليك: ها قد حلقت شاربيَّ ولحيتي - لم يذكر الحاجبين - كالقلندرية عندكم، فأنا من بابَتِهم.

كان إذا سئل عن شكلِهِ الذي ظهر به مع أتباعه، لم تختلف إجابته عن الفهم المنحرف للمَلامة، وهو مما اخترعته الصوفية، قال: «إنما قصدت أنه لا تبقى لي حرمة عند الناس، فأنا مسخرة الفقراء»، وقال: «الظاهر لا اعتبار به، إنما المقصود إصلاح الباطن»[1]، وزعم: أنه إنما سلك هذا الزِّي؛ ليخرِّب به على نَفْسِه[2].

لماذا جاء دمشق في ذلك التوقيت؟

كان دخول الشيخ (بَراق) ومريديه دمشق، في التاسع من جمادى الأولى سنة ٧٠٦هـ، وليثُ السُّنَّة، وشيخ الإسلام: ابنُ تَيْمِيَّة محبوس بقلعة الجبل بالقاهرة، فقد طُلب إليه أن يسافر إليها، إثر مؤامرة من أعدائه، فقصدها في ثاني عشر رمضان سنة ٧٠٥هـ، وأتباعه وتلاميذه من أهل العلم مُضَيَّق عليهم في دمشق، مكمَّمَة أفواههم. ولعل من أسباب عدم السماح لبراق بدخول القاهرة كون شيخ الإسلام كان بها. ولم يرجع ابن تيمية إلى دمشق إلا سنة ٧١٢هـ. وقد نقل الإمام العيني خبر اتهام الشيخ (بَراق) لأهل كيلان؛ بأنهم مجسِّمون على مذهب ابن تَيْمِيَّة! وذكر العيني -أيضاً- أن

---

(١) المقتفي، للبرزالي (٣/٣٢٤).

(٢) عقد الجمان، للعيني، (٤/٤٠٥).

البلاء وسَفْك الدماء بها كان: من تحت رأس بَراق ![١].

وليس من الخطأ على هذا أن يقال: إن بعض مريدي بَراق كانوا حاضرين مناظرة أبي العباس لإخوانهم الرفاعية، بل إن ذلك موجود في معنى كلام ابن تَيْمِيَّة على المناظرة المذكورة، فهو يخبر أن: طوائف من المتفقهة، والمتفقرة، وأتباع أهل الاتحاد، كانوا من مناصريهم، مادين في ذلك بكل ما أمكنهم[٢]. وأغلب الظن أن بعضهم مَن حدَّث ابنَ السَّراج بالشبَه في الشكل والخِلْقة بين ابن تيمية و(صالطوق)؛ فما فعله الشيخ بَراق بأهل كيلان من بعض ذلك النصر لأهل البدعة والزيغ، ولو علم مريد بَراق: الأمير المغولي (قُطْلُوشاه) حين قدم الشام قبل ذلك التاريخ بسنوات قليلة، بغض بَراق الأسود لأبي العباس ابن تَيْمِيَّة، الذي حضر عنده «وكلمه في الرَّعية، فتنمَّر ولم يَلْوِ عليه»[٣]، لو عَلِم رأي شيخه براق هذا في ابن تَيْمِيَّة؛ لسفك دمه تقرُّبًا إليه.

ويفهم من كلام صاحب كتاب (مسالك الأبصار) أنهم عرفوا خطره على دولتهم بعد ذلك، حين بلغهم تأثير فتاواه، فكان خوفهم أن يدعو أهل البلاد التي احتلها المغول إلى الوثوب عليهم وعلى أعوانهم، فجعلوا يترصدون به الدوائر[٤]. ولا جرم أنهم أُبلِغوا مِن خدَمهم وخفرائهم: أن ابن تَيْمِيَّة كان قوة محركة في المجتمع المملوكي وأمرائه، يومَ هزم المغول في (شقحب)

---

(١) عقد الجمان، للعيني (٣٨٦/٤، ٤٠١).

(٢) الفتاوى، لابن تَيْمِيَّة (٤٥٧/١١).

(٣) الوافي، للصفدي (٢١٦/١٣).

(٤) مسالك الأبصار، لابن فضل الله العمري (ت٧٤٩هـ)، نقلاً عن كتاب الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تَيْمِيَّة (ص ٢٥٥).

الهزيمة التي ما قام لهم بعدها قائمة، حتى قال الصفدي: «والذي أعتقده أنه من حين ظهر جنكيزخان ما جرى للمغول بعد واقعة عين جالوت - ولا إلى يومنا - مثل واقعة شَقْحَب، كادت تأتي على نوعهم فناء»، وقال في تأثيرها على غازان: «ولم يصدع حصاة قلبه، ولا فلَّ عرش قُواه مثل نَوْبة شقحب، فإنها أماتته بغَبْنه غبنًا، وكانت بغير رأيه، لأنه جهَّز قطلوشاه بالعساكر ليغير على حلب والأطراف، وأمره ألا يعدي حمص ...»، ثم ذكر أنه حين رجع إليه (قطلوشاه) بالهزيمة، شتمه وضربه، وأوقفه يومًا في الشمس[١].

ولقد بلغ من تغيُّظ الشيخ بَراق - وكانت تأتيه أخبار ابن تَيْمِيَّة والشكاة منه من حيدرية دمشق ورفاعيَّتها، الغُلاة، وقَلَنْدَرِيَّتها - أن حَرَّض مُرِيدَيْه (خربنده) و(قُطْلُوشاه)، وغيرهما على تدمير بلاد كيلان؛ لأن مِن شيوخها مَن التزم بدعوة شيخ الإسلام ابن تيمية الإصلاحية، وتقبل العقيدة السلفية، فلم يجد القلندرية وطوائفها «سُوقًا» لأفكارهم فيها، ولم يَلْقَوا ترحيبًا من سكانها، وربما بلغتهم فتواه في عدم جواز إعطائهم أموال الزكاة. وكان من تقدير أهل كيلان لعلم أبي العباس، وحبِّهم له؛ أن أرسلوا يستفونه في مسائل عقدية[٢].

مصير شيخ المغول بَراق:

كان موته بعد قتال أهل كيلان[٣] والمغول، إذْ سَفَر إليهم يَروم فِكَاك مَن أَسَرَهم الكيلانيون من عدوهم، وقد أخطأ الصفدي في موضع من (أعيان

(١) الوافي، للصفدي (٦/٤، ١٤).

(٢) أسماء مؤلفات شيخ الإسلام ابن تَيْمِيَّة، لابن رُشَيِّق المغربي (ت ٧٤٩هـ)، نقلاً عن الجامع لسيرة ابن تَيْمِيَّة (ص ٢٣٤، ٢٩٢).

(٣) كيلان، أو جيلان كما عرفها العرب، بلاد وراء طبرستان، بين قزوين وبحر الخزر، صعبة =

العصر) حين ذكر أن ذلك كان زمن (غازان)[١]، وإنما هلك (غازان) سنة ٧٠٣هـ، وحرب المغول مع أهل كيلان كانت زمن (خدابنده) في المحرَّم سنة ٧٠٧هـ، وهي حرب ظالمة كعادة المغول، فإنهم طلبوا من أهل كيلان فتح طريق إلى بلادهم فيها مَضَرَّة عليهم، وسئلوا ذلك مرارًا، فامتنعوا في كل مرة، فاتهمهم المغول بأنهم باغية[٢]، وكان الشيخ براق ممن زادهم تحريضًا على غزوهم، ملصقًا بهم، في ببغائية، تهمة أعدائهم: «التجسيم»، وهو انحراف في العقد قد انقرض ذووه قبل زمن طويل.[٣]

= المسالك ؛ لكثرة ما بها من الجبال والوهد والأشجار والمياه، في كل بقعة ملك مستقل لا يُطيع غيره.(انظر: آثار البلاد، للقزويني، ص ٣٥٣، ٣٥٤). ولم يخضع ملوك كيلان لسلطان المغول. (عقد الجمان، للعيني ٣٩٢/٤)، فلم يقبل الطغيان والكِبر (الإلخاني) أن يترفَّع ملوك جيلان عن إرسال الرسل بالطاعة والخضوع إليهم. (انظر: ذيل العبر، للذهبي ١٤/٤، وعقد الجمان، للعيني ٤٠٣/٤)، هذا وهم على مقربة من بلادهم وعاصمتهم (السلطانية) (انظر: القلقشندي، المصدر السابق ٣٨٢/٤)، وأنها صارت ملجًا لمن هرب إليها من عمال المغول (الحوادث الجامعة والتجارب النافعة، المنسوب لابن الفوطي، ص ٥٣٥).

(١) أعيان العصر، للصفدي (٣٥٨/٢).

(٢) المقتفي، للبرزالي (٣٥٢/٣).

(٣) عقد الجمان، للعيني (٣٨٦/٤، ٤٠١). وقد ذكر المؤرخون أن أهل كيلان شافعية وحنابلة في الفروع. (صبح الأعشى، للقلقشندي، ٣٨٢/٤)، أما في أصول المعتقد ؛ فقد عدَّ التاج السبكي وجود أشعري بها من النوادر (طبقات الشافعية الكبرى ٢٣٥/٥)، وقال ابن كثير إنهم: «أهل سنة، وأكثرهم حنابلة، لا يستطيع مبتدع أن يسكن بين أظهرهم». (البداية والنهاية ٤٧/١٤)، ويُعلم مما ذكره شيخ الإسلام ابن تَيْمِيَّة أن مِنَ الأكراد، في ذلك العصر وتلك النواحي، مَنْ فيهم تجسيمٌ وتشبيه ؛ كالكرامية، ومذهبهم حنفي، وهم بخراسان أكثر، وربما كان الشافعية من الأكراد كذلك، بَيْدَ أن الحنابلة المحْضَة مِن أهل كيلان يَبْعُد أن يكون فيهم ما في غيرهم من ذلك (الفتاوى ١٨٥/٣، ١٩٧، ١٥٠/١٧)، و(درء التعارض، لابن تَيْمِيَّة ٢٦٤/٧)، وقد سأل ابنُ تيمية، خطيبَ كيلان، شمس الدين =

جَهَّز المغول جيشًا في ستين ألفًا إلى أهل كيلان، وجعلوا قيادته إلى مريد بَراق ؛ الأميرَيْن (قُطْلُوشاه)، و(جوبان)، وكان الأول أشدهما حَنَقًا على الكيلانيين[١]، وسار الجيش إلى تلك البلاد التي يُذكر عنها الوعورة، واستعَدَّ لهم أهلها بما قدروا عليه من وسائل الدفاع، وجَرَتْ محاولة للصلح معهم، لكن الفَرْعَنة المغولية أبَتْ عليهم قَبول ذلك، وضُرِبَ عنق ابن ملكهم (شمس الدين دوباج) (ت ٧١٤هـ) الذي جاءهم رسولًا في طلب المسالمة، وعُلِّقَتْ في رقبة بعض هيئة الصُّلْح.

فكان أن ظَفَر الأكراد وهُزِم المغول، وأُسِر (قُطْلُوشاه) وغيره من الأمراء، وسِيقُوا إلى مدينة ملكهم (دوباج)، وهو الذي قتل المغول ابنه، وجعل أمراء كيلان الحكم في أسرى المغول إلى هذا الملك المفجوع بولده، فكان حكمه أن يقطع بعض اليهود أيدي الأسرى وآذانهم وأنوفهم، ويحلقوا لحاهم، وبعد أن فُعل بهم ذلك، أُركبوا حميرًا، وداروا بهم في بلادهم.

ثم نُصِبَتْ لهم - وكانوا سبعين أميرًا مغوليًا -« خوازيق »، وتبدلت قسوة المغول عند (قُطْلُوشاه) بكاء وتضرعًا إلى ملك الأكراد (دوباج) أن يرحمه، ولكن الملك رد ذلك كله، وأمر بهم جميعًا، فحملوا ووضعوا على الخوازيق[٢].

= محمد بن الرضي، في سنة ٧١٥هـ، حين مرَّ بدمشق للحج، أسئلة في المعتقد، في الصفات الإلهة، فكان ما أجابه به يدُلُّ على صحة معتقدهم وكذب خصومهم. انظر هذه الأسئلة وأجويتها في: (الورقة ١٢٦) من مخطوطة المكتبة الوطنية في أنقرة، (برقم ١٧٥١٧).

(١) عقد الجمان، للعيني (٣٨٧/٤).

(٢) عقد الجمان، للعيني (٣٨٥/٤-٤٠٠)، وانظر: المقتفي، للبرزالي (ص٣١٠)، =

وصلت فلول المنهزمين إلى (السلطانية)، عاصمة (خدابنده)، وأخبروه بانكسارهم، وأن (قُطْلُوشاه) ومن معه قد أسروا، فعظم الخطب عليه، وبات بشرٍّ ليلة، ولما أصبح، أرسل كشَّافة ليستصحُّوا الأخبار، ورحل هو إلى (تبريز).

كان الشيخ بَراق في معية (خدابنده) في تبريز، يترقبان مؤكد الأخبار عن أمراء الجيش المغولي وما حل بهم، فلما جاءت بأنهم أسروا، قال بَراق لخدابنده: «لا تحمل الهمَّ، أنا أسِيرُ إلى بلاد كيلان، فأحْضِر قُطْلُوشاه، ومَنْ معه»، ولم يكن قد بلغهم خبرُ إعدامهم بالخوازيق.

فقال له (خدابنده): «افعل ما تريد»، فسار بَراق هذه المرة سفيرًا إلى ملك الكيلانيين، ومعه ثلاثون من مريديه البَراقية الحيدرية.

كانت بين بَراق، و(قُطْلُوشاه) مودة عظيمة، فلذلك ما خاطر بنفسه، وتقدم إلى دخول التهلكة بأرض كيلان، التي كان هو من أسباب غائلتهم.

فلما وصل إلى مضيق من مضايق أودية كيلان، أمسك به ما يُشْبِهُ اليوم حرس الحدود القبض عليه، وجيء به إلى ملكهم (دوباج)، فلما مَثُلَ بين يديه سَلَّم عليه، فقال له (دوباج): «أنت بَراق؟»

فقال براق: «نعم!»

فأمره بالجلوس، وقد بلغه أنه الذي حرَّض المغول على اجتياحهم.

ثم قال له: «الحمد للَّه الذي أتى بك، يا شيخ بَراق، من غير تعب،

= والذهبي، دول الإسلام (٢/٢٤٨)، وذيل سير أعلام النبلاء (المطبوع باسم ذيل تاريخ الإسلام) (ص ١٤٦)، ولم يذكر من المصادر هذه القتلة سوى الإمام العيني، والذي عند البرزالي، والذهبي أن (قُطْلُوشاه) أصيب بسهم فقتل.

فواللَّه لقد كان في قلبي نارٌ من جهتك ! ».

ثمَّ سأله: « لماذا أتيت في هذا الوقت ؟ »

فقال بَراق: « اعلم أن سلطان البلاد، ومالك رقاب العباد (خدابنده) قد سيرني إليكم ناصحًا، لما علم أنني صادق، وكلامي للحق موافق، وهو يأمركم أن تطلقوا (قُطْلُوشاه) ومن معه من الأمراء، وتبعثوا إليه ما عليكم من الأموال، وأن ترجعوا عما تعتقدون من مذهب المجسمة، وتعتقدوا ما قاله الأشعري، وإلا سار إليكم بعساكر تضيق لها الأرض ! ».

فلما سمع (دوباج) ذلك قال له: « أنت يا بَراق ما جئت إلا في هذا الأمر ؟ »، قال: « نعم ! ».

فقال له: « فكأنك تحب قُطْلُوشاه ؟ ! ».

فقال: « نعم ؛ لأنه أخي وصاحبي !! ».

فقال له: « يا فقير: وأين الإسلام الذي عندك إذا كان هذا أخوك ؟ ! وأيش هذه الحالة التي أنت عليها ؛ محلوق الذقن والرأس، وقد خَلَّيْتَ شواربك[1] كأنك شيطان ؟ ! أيش هذا الذي تعتقد من الأديان ؟ اليوم أُخْلي منك الأوطان، وأفجع فيك أصحابك والخلَّان ! ».

ثم قال: « رُدُّوه إلى أخيه (قُطْلُوشاه) ؛ فإنه يحبُّه ! ».

فأخذوه وجاؤوا به إلى (قُطْلُوشاه) وهو قاعد على الخازوق، وهو ميِّتٌ قَدِيدٌ، فلما رآه على هذه الهيئة بكى وصاح، ثم نظر ؛ فإذا هم قد نَصَبوا خازوقًا مثله بجنب (قُطْلُوشاه).

---

(١) هذا شاهد على أن براق ومريديه قد استعملوا التقية مع أهل دمشق، حين أوهموهم أنهم تركوا تعاليم حيدريَّتِهم في توفير الشوارب وحلق اللحى.

فقال لهم: « ما هذا ؟ »

قالو له: « هذا مجلسُك الذي أمِرنا بأن نجْلِسَك عليه ! ».

فقال: « يا قوم ؛ لا تفعلوا، فما أظن (دوباج) يفعل هذا ؛ لأنه صاحب دين ويقين صادق، وهو صالح من الصالحين ! ».

فقالوا له: « لا تُطَوِّل هذا الكلام، فلا بدَّ لك من الجلوس على هذه الخشبة ! »، ونصبوا مع خشبته ثلاثين خشبة لمريديه الحيدرية، وأقعدوهم جميعًا على الخوازيق، ولم يتركوا منهم إلا واحدًا من غلمانهم ليذهب بخبرهم، ولكنهم قطعوا له أنفه وأذُنَيه، ثم أرسلوه إلى المغول(١).

وفي مصدر مُوالٍ للمغول: أن بَراق حين أمسك به أهل كيلان سنة ٧٠٧هـ، قال لهم: « أنا الشيخ بَراق، قَدِمْتُ من الحج، أفلا تستحون من قتلي ؟ ! ». فقالوا له: « أهلًا بك يا شيخ المغول، إنا كنا لندعوا اللَّه أن يُمكننا منك لنقتلك، وننال الأجر والسعادة بذلك، فجئت بقدميك إلينا ! »(٢)، ونقل الصفدي طريقة إعدام أخرى، لعلها تكملة الرُّعْبِ السابق، فقال - إن لم تكن من بلايا سجعه: « ... وسَلَقوه في دَسْت، وألقوه بعد ذلك في طَسْت »(٣). كانت قتلة بشِعَةً بشاعة مظهره ومذهبه، وهي على

---

(١) عقد الجمان، العيني (٤/٤٠٤-٤٠٤).

(٢) تاريخ السلطان أولجايتو خدابنده، لعبد اللَّه بن علي الكاشاني، نقلاً عن كتاب: يونس أمره والتصوف، لعبد الباقي كولبينارلي، (ص ٢٠-٢٣)، وذكر هناك أن مخطوطتها في السليمانية بإصطنبول رقم (٣٠١٩)، قلت: ومما ورد في هذا المصدر: « وقَطَّعوه إربًا إربًا كجمل الأضحية ». من هذه القتلة والتمثيل بجثة بَراق، يظهر لي أنه قد تُرِك لعوام بلادهم الحبل على غاربهم، ففعلوا به ما لا يجوز في شرعنا.

(٣) أعيان العصر، للصفدي (١/٦٨٢).

كل حال قتلة مخالفة للشريعة، ومع ذلك ؛ فقد قالت بعض المصادر عن ذلك: فقتلوه وأراحوا الناس منه[١]. ومن العجب أن ابن السَّرَّاج لم يَنْبِس ببنت شفة حول مقتله، وهو من عرفه، وألَّفَ كتابه، الذي جمع فيه أخبار أمثاله، بعد قتله بأكثر من خمس سنين !

فلما سمِع (خدابنده) بهذه (الخَوْزَقة) لأمراء المغول ولشيخه بَراق ومريديه، ألقى بنفسه من سريره، وبكى، حتَّى غشي عليه، وكان أكثر ما فَلَقَ كبده كمدًا وحزنًا مصير شيخه بَراق، أما (قُطْلُوشاه) فقد صَرَّحَت مصادر بفرحه لموته[٢]، ثم قال، وهو ينتحِب: « كيف هان عليهم عمل هذا بالشيخ الصالح ؟ ! ».

وقال: « والله يا أمراء ؛ لقد حَمَلتُ همًّا على الشيخ بَراق أكثر من همِّي على (قُطْلُوشاه) وعسكري »، ثم أمر بتجهيز جيش آخَر، مناديًا: إما بفناء المغول، أو تدمير كيلان[٣]. قال النويري: « وفي سنة سبع وسبعمئة سار خربندا إلى جبال كيلان، وأوقع بالأكراد، وقتل منهم خلقًا كثيرًا، وسبَى نساءهم وأولادهم، وأمر ببيعهم بمدينة تبريز، فبِيعوا بها ! »[٤]. ونقل مريدو بَراق بعد ذلك عظامًا لغيره، ظنُّوها رُفاته إلى السلطانية عاصمة المغول، ودفنوها هناك، وبُني عليه بأمر مريده السلطان خربندا تربة وزاوية، وعُيِّن لدراويشِها خمسون دينارًا في اليوم[٥].

---

(١) البداية والنهاية، لابن كثير (٤٧/١٤).

(٢) المقتفي، للبرزالي (٣٥٢/٣)، والبداية والنهاية (٤٧/١٤).

(٣) المقتفي، للبرزالي، (٣٥٢/٣) وعقد الجمان، للعيني (٤٠٤/٤).

(٤) نهاية الأرب، للنويري (٢٨١/٢٧).

(٥) تاريخ خدابنده، للكاشاني، نقلاً عن كولبينارلي، (ص ٢١-٢٣).

وأَخْتِم هذا الكتاب بكلمة قالها المؤرخ الكبير الإمام الذهبي، في بعض سياق كلامه، قال: « .. فلَعَنَ اللَّهُ ساعةَ التَّتَر ! »، وأُكمِلُها أنا، فأقول: إنَّ ومَن خَدَمهم ![1]

* * *

(١) مِثْلُ الذهبي – رحمه اللَّه تعالى – يعلم أن سَبَّ الدَّهر والزمان محرَّم، فلا جَرَم أنه لَعْنٌ منه للمغول أنفسِهم.

ثبت المصادر والمراجع

١- أساس البلاغة، للزمخشري، بيروت.
٢- أضواء على الرسالة المنسوبة إلى الحافظ الذهبي : « النصيحة الذهبية لابن تَيْمِيَّة»، وتحقيق في صاحبها. لأبي الفضل القونوي ، بيروت.
٣- الأعلام، للزركلي، بيروت.
٤- أعيان العصر وأعوان النصر، للصفدي ، بيروت- دمشق.
٥- البداية والنهاية، لابن كثير. طبعة الدكتور عبد الله التركي.
٦- تتمة المختصر في أخبار البشر ، المعروف بتاريخ ابن الوردي. بيروت.
٧- تاريخ الإسلام، للذهبي، تحقيق د. بشار عواد ، بيروت.
٨- تاريخ حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه، لمحمد بن إبراهيم الجزري، بيروت.
٩- تحفة النظَّار في غرائب الأمصار ، ابن بطوطة، بيروت.
١٠- ترتيب القاموس المحيط، الطاهر أحمد الزاوي، القاهرة.
١١- جامع سيرة شيخ الإسلام ابن تَيْمِيَّة، جمع : عزير شمس وعلي العمران. مكة المكرمة.
١٢- الجامع الصحيح المختصر ، للإمام البخاري ، بيروت .
١٣- الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، ابن حجر العسقلاني. بيروت.
١٤- ذيل العبر في خبر من عبر، الذهبي ، بيروت.
١٥- الذيل على طبقات الحنابلة، ابن رجب. الرياض.
١٦- سير أعلام النبلاء، الذهبي. بيروت.
١٧- طبقات الشافعية الكبرى، التاج السبكي، القاهرة.
١٨- مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تَيْمِيَّة، الرياض.
١٩- مسند الإمام أحمد بن حنبل ، القاهرة.

٢٠- المعجم المختص، الذهبي، الطائف.
٢١- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية. القاهرة.
٢٢- مقاييس اللغة ، لابن فارس ، القاهرة.
٢٣- لسان العرب، ابن منظور، بيروت.
٢٤- المقفَّى الكبير، للمقريزي، بيروت.
٢٥- نهاية الأرب في فنون الأدب، النويري، القاهرة.
٢٦- الوافي بالوفيات، الصفدي، بيروت.
٢٧- تذكرة دولتشاه، أنقرة .
٢٨- الكامل في التاريخ، ابن الأثير، بيروت
٢٩- كتاب الاستغاثة ، ابن تيمية، الرياض.
٣٠- ثمرات الأوراق، ابن حجة الحموي، القاهرة.
٣١- الحوادث الجامعة والتجارب النافعة، منسوب لابن الفوطي، بيروت.
٣٢- عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، العيني، القاهرة.
٣٣- شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، ابن العماد ، بيروت.
٣٤- ذيل مرآة الزمان، اليونيني، القاهرة، و تكملة بعض السنوات مطبوع في أبوظبي.
٣٥- العماديات ، رسائل عماد الدين الواسطي ، بيروت.
٣٦- منهاج السنة النبوية ، ابن تيمية ، الرياض .
٣٧- تفاح الأرواح ومفتاح الأرباح، محمد بن السراج الدمشقي، مخطوطة.
٣٨- تشويق الأرواح والقلوب إلى ذكر علام الغيوب، محمد بن السراج الدمشقي، مخطوطة المؤلف.
٣٩- مسند الشاميين ، الطبراني، بيروت.
٤٠- كتاب النبوَّات، ابن تيمية ، الرياض.
٤١- الوفيات، ابن رافع السُّلَّامي، بيروت.

٤٢- كتاب الرد على الأخنائي ، ابن تيمية ، الرياض.
٤٣- البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، بيروت.
٤٤- مناقب العارفين، شمس الدين الأفلاكي، إصطنبول.
٤٥- تاريخ مجموع النوادر ، قرطاي العزِّي، بيروت.
٤٦- مجمع الآداب، ابن الفُوَطي ، بغداد.
٤٧- المقتفي على كتاب الروضتين، البرزالي، بيروت.
٤٨- ذيل سير أعلام النبلاء (المطبوع باسم ذيل التاريخ) الذهبي ، بيروت .
٤٩- ذيل جامع الرسائل، ابن تَيْمِيَّة ، القاهرة.
٥٠- مختارات مما كتب عن «مولانا» ، وداد كنج، إصطنبول .
٥١- الصفدية، ابن تَيْمِيَّة، الرياض.
٥٢- كتاب فيه ما فيه، جلال الدين الرومي، الترجمة التركية إصطنبول، والعربية دمشق.
٥٣- الجواهر المضية في طبقات الحنفية، محيي الدين القرشي، القاهرة.
٥٤- المقالات، شمس الدين التبريزي، إصطنبول.
٥٥- كنوز الذهب في تاريخ حلب، سِبْط ابن العجمي، حلب.
٥٦- أخي أورن وتأسيس الفتوة الأخوية ، د. ميكائيل بايرم، قونية.
٥٧- المغول في التاريخ، فؤاد عبدالمعطي الصياد، بيروت.
٥٨- القلندرية، أ. د. أحمد يشار أوجاق، أنقرة.
٥٩- المولوية بعد مولانا ، عبد الباقي كولبينارلي. إصطنبول.
٦٠- القلندرية تاريخها ، وفتوى شيخ الإسلام ابن تيمية، للقونوي، بيروت.
٦١- مولانا جلال الدين، ع. كولبينارلي. إصطنبول.
٦٢- الكتاب الأسود، رواية لبرهان باموق، إصطنبول.
٦٣- ديوان سلطان ولد، الطبعة العثمانية ، أنقرة.
٦٤- رسالة السبهسالار ، إصطنبول.

٦٥- روضة الأعيان في أخبار أعيان مشاهير الزمان، لمحمد بن أبي بكر، مخطوطة.
٦٦- المعارف ، سلطان ولد. إصطنبول.
٦٧- ألفاظ الكفر، بدر الرشيد الحنفي. الرياض.
٦٨- أخبار جلال الدين الرومي، أبو الفضل القونوي. بيروت.
٦٩- يونس أمره والتصوف، كولپينارلي . إصطنبول.
٧٠- الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، ابن شداد ، الرياض.
٧١- المغول، بيئتهم الطبيعية وحياتهم الاجتماعية والدينية، د. سعد الغامدي
٧٢- صبح الأعشى، القلقشندي، القاهرة.
٧٣- ذيل العبر في خبر من غبر ، الذهبي، بيروت.
٧٤- آثار البلاد وأخبار العباد، زكريا القزويني. بيروت.
٧٥- التعريف بالمصطلح الشريف، ابن فضل الله العمري، عمّان.
٧٦- صحيح مسلم، بيروت.
٦٩ - منادمة الأطلال ومسامرة الخيال، عبد القادر بدران. دمشق.
٧٠ -- مدارج السالكين، ابن قيم الجوزية، بيروت
٧١ - كنز الدرر وجامع الغرر، الداواداري . القاهرة.
٧٢ - تاريخ مختصر الدول ،ابن العبري. بيروت
٧٣ - رسالة إلى الملك الناصر ، ابن تَيْمِيَّة. مخطوطة ومطبوعة.
٧٤ - الرسالة القبرصية ، ابن تَيْمِيَّة، مخطوطة ومطبوعة.
٧٥ - الوحيد في سلوك أهل التوحيد ، عبد الغفار بن نوح. مخطوط
٧٦ - النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة، ابن تغري بردي القاهرة.
٧٧ - فتاوى أبي السعود أفندي، جمع : محمد أرطغرل دوز داغ. إصطنبول.
٧٨ - سنن الدارمي، بيروت.

❁ ❁ ❁

الفهرس

الموضوع	الصفحة

❁ ❁ ❁